﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾ [الحديد: 25]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا كان غنيًّا حميدًا؛ أرسل الرّسل، وأنزل معهم الكتب لإقامة القسطِ

لَمّا تقرّرت الحجج السّاطعة، وظهرت البراهين القاطعة حتّى لم يبقَ لمعتذر عذر، ولا لمستكبر حجّة، وشاع نور الدّلالة، فغمر أقطار الوجود، وكان قد سبق بيان خسَّة الدّنيا ووضاعة بهجتها، وأنَّ الإنسان إذا تُرك ونزعات طبعه؛ انقاد إلى البُخْل والفخر؛ فناسب أن يُبيّن سبحانه أنّ غناه مطلق، وحمده كامل؛ إذْ هو الغنيّ الحميد، غير أنّ ختام تلك الآية ربّما يوهم اشتراك الأنبياءِ في هذا الغنى؛ أعلن اللّهُ جلّ شأنه أنّه لم يترك الخلق سُدًى، بل أيّد أنبياءه بالبيّنات، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم النّاس بالقسط، وأنزلَ الحديد قوة رادعة، ومنفعة واسعة؛ لتتمَّ الحجّة بالبرهان، ثمَّ بالسَّيف عند الإعراض والطّغيان، وليعلم مَن يَنْصُرُ اللّهَ ورسلَه بالغيب، إنَّه سبحانه القويّ العزيز[1].

من مظاهر حمد المولى سبحانه نعمة الهداية بإرسال الرّسل والشّرائع

ومن أوجُهِ المناسبةِ بين هذه الآيةِ وما قبلَها: أنّ اللّه سبحانه وصف ذاته بـ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ المستحقّ للحَمد على ما أنعم به على عباده، ولمّا كانت من أجلّ نِعَمِ اللّه تعالى نعمة الهداية إليه؛ اقْتَضَت الحكمة أن تُذكَر هنا هذه النّعمة الجليلة، وهي نعمةُ إرسال الرّسل وما مَعَهُم مِن كُتُب الشّرائع، وما في أيديهم من معجزات تشهد لهم بأنّهم رسل اللّه تعالى، وأنّ دعوتهم إلى النّاسِ ليسَت دعوة بشريّة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 299.

بل هي دعوةُ اللّهِ تعالى، جامعًا بين الثّناء على ذاته، وتنبيه النّاس إلى أصل الهداية وسببِها الحقّ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾: اسمٌ لآلة الوزن، والأصل فيه (مِوْزان) حصل فيه إعلالٌ صرفيّ بقلب الواو ياءً مجانسة للكسرة السّابقة، وهو على زِنَة (مِفْعال)، والجذر اللّغويّ منه: (وزن)، ومعناه: ثِقَلُ شيءٍ بما يُعادِلُه، والوزنُ معناه: التّقدير، والعرب تقول: ما لفلان عندنا وزنٌ، أي: قدْرٌ؛ لخسّته، وهذا يزِنُ درهمًا، ودرهم وازن، أي: تامٌّ[2]، والأصل في الحرف المعتلّ والزّاي والنّون دلالتُها على الاستقامَةِ والتّعديل، والمتعارَفُ في الوزنِ عندَ العامّة ما يُقدَّر بالقسط والقبّان، كقوله تعالى: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ﴾ [الإسراء: 35][3]، ومعنى ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ في الآية الكريمة: "العدل، قال سلمة: كفّة الميزان على جهنّم، والكفّة الأخرى على الجنّة"[4].

2) ﴿بِٱلْقِسْطِۖ﴾: اسمٌ ثلاثيّ مِن الجذر (قسط)، والقسْطُ: هو العدْلُ في القِسمة والحكم، يقال: أقْسَطْتُ بينهم، وأقْسَطْتُ إليهم، و(القِسطِ) هو الحصّة التي تؤول إلى صاحبِها، ويقال: تَقَسَّطوا الشّيء بينهم، أي: اقتسموه بالسّويّة، فكلّ مقدارٍ يُعدّ قِسْطًا في كلّ أمر، و(القِسطِ) بكسر القاف وضمّها معًا: يطلقانِ على أعدَلِ المَوازين[5]، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: 47]، أي: ذواتَ القِسطِ، أي: العدل، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 282]، أي: أقوم وأعدل[6]، ومعنى قيام النّاس بالقِسْطِ في الآية الكريمة، أي: بالحقّ والعدل باتّباع الرّسُلِ فيما أخبَروا به، وطاعتهم فيما أُمِروا به؛ إذ ما جاؤوا به هو الحقّ الذي لا يتجاوَزُه حقٌّ[7].

3) ﴿ٱلْحَدِيدَ﴾: اسمٌ على وزْنِ (فَعيل)، والجذر اللّغويّ منه: (حدد)، و﴿ٱلْحَدِيدَ﴾

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 786 - 787.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (وزن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وزن).
(4) عبد الرزاق، تفسير عبد الرزاق: 3/ 287.
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قسط).
(6) الزبيدي، تاج العروس: (قسط).
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 188.

هو الجوهَرُ المعروفُ الدّالُّ على المَنَعَة، والقطعة منه: الحديدة[1]، سُمّي بذلك لمناعَتِه وصلابَتِه، وعدم قبوله الانشقاقَ أو التّفتُّتَ بالضَّغْطِ المُعْتاد، أي: بالكيفيَّة التي ينشقّ، أو يتفتّت بها غيره[2]، وهو المراد به في الآية[3].

4) ﴿بَأْسٌ﴾: اسم ثلاثيّ مجرّد، والجذر اللّغويّ منه: (بأس)، ويَرِدُ بلَفْظِ البَئِس، على زِنَةِ (فَعِل) بمعنى: العذابِ الشَّديد، ومن معانيه الأخرى أيضًا: الحرب[4]، والأصل في الباء والهمزة والسّين: راجِعٌ إلى الشّدّة ونحوِها، كالشّدّة في الحرب، ويَرِدُ بمَعْنى الامتناعِ والقوّة[5]، ومعنى البأسِ في الآية موضع الشّاهد: "الحرب تكون بآلته وسلاحه، أو خوف شديد مِن خشية القتل به"[6].

5) ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾: جَمْعٌ على صيغة منتهى الجموع بِوَزْنِ (مَفاعِل)، مأخوذٌ من الجذر اللّغويّ (نفع)، وأصل النّفع في الدّلالة اللّغويّة: أنّه خلاف الضَّرر، فكلّ ما يعدّ خيرًا فهو داخل في معناه[7]، وحقيقةُ النّفع: "ما يُستعان به في الوصول إلى الخيرات، وما يُتوصَّل به إلى الخيرِ فهو خيرٌ، فالنّفع خير، وضدّه: الضّرّ"[8]، ومن هنا صار النّفع لفظًا جامعًا لكلّ ما يعود على الإنسان من فائدة حسّيَّة أو معنويّة، كما يُطْلَقُ على الفائدةِ المحصَّلة مِن الشّيء، والجدوى العائدة على المنتفِع به[9]، ومعنى المنافع في الآية الكريمة: ما يقيمون به شؤونَ مصالِحِهم ومَعايِشِهم وصَنائعهم؛ إذ لا تكاد توجد صناعة إلّا وللحَديد فيها آلة يعتمَد عليها، أو أثر يُعْمَل به، ويقوم مقامَ الأساسِ فيها[10].

6) ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مجرّدٌ، جذره اللّغويّ: (غيب)، والغيبُ في أصل معناه: ما كان خلافَ الحاضرِ المشهود، وهو المكان الذي يُسمَع منه الصّوت، ولا يُرى، أو يُجهل ما

(1) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (حدّ).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حدد).
(3) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 309.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بأس).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بأس).
(6) العزّ بن عبد السلام، تفسير القرآن: 3/ 289.
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير: (نفع).
(8) الراغب، المفردات: (نفع).
(9) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نفع).
(10) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 441.

فيهِ وما وراءه، وكلّ ما غاب عن العيون يُسمّى: غيبًا، سواء أكان ثابتًا في القلوب بالاعتقاد أم لم يكُن محصّلًا بَعْدُ[1]، ويُطلَق كذلك على معنى السَّتر، والخفاء[2]، والمعنى المحوريّ للجذر: الاختفاءُ اسْتِتارًا بكثيفٍ في أثناءٍ أو عمقٍ[3]، ومعنى الغيب في الآية الكريمة: أنّه إيمان من لم يَرَ اللّه تعالى، ولم يشاهد أحكامَ الآخرة وحقائِقَها، وإنّما يجتهد في الطّاعة، ويُثاب عليها؛ لأنّه آمنَ بالغيب، وامتثل الأمر دون معاينَةٍ، فصار إيمانهُ أرسخَ وأعظمَ أجرًا[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إقامَةُ العَدْلِ ونصرةُ الحقِّ وتمييز المُخْلِصين في نُصْرَةِ الدّين

يذكر اللّه تعالى أنّه قد أرسلَ الرّسل محمَّلين بالبيّنات السّاطعة، مفصَّلات الحجج، وأنزلَ معَهُم الكتابَ المُشْتَمِل على الأحكام المُحْكَمَة، والميزان الذي به يستقيم أمرُ العدل بين العباد، وليَجْعَلوا العدل أساسَ معاملاتِهم، فَيَصِلُ كلُّ ذي حقّ إلى حقّه، وأنزل الحديد، وجعل فيهِ قوّة صارمةً، وبأسًا شديدًا، ينتفع به النّاسُ في مواطن الحرب، والذّبّ عن الحقّ، كما ينتفعون به في مصالح معاشِهم، وما تقوم به صناعاتُهم، فهو أداةُ نُصْرَةٍ، ومظهَرُ منفعَةٍ، ثُمّ بيّن المقصد الأعظمَ بقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ﴾، أي: ليتميّز المخلِص من المدّعي، ويعلَم مَن يَنْهَض بنُصرة دينِ اللّه تَعالى ورسله، وهو غائبٌ عن مرأى العيان، وختم الآية بأنّه سبحانه قويّ لا يُغالب، عزيز لا يُقهر، غالبٌ على أمره، منتقِمٌ ممَّن عاندَ رُسُلَه، وخالفَ أمره[5].

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غيب).
(2) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 361.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غيب).
(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 238.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 424 - 426.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ هذه الآية عمّا قبلَها:

فُصِل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ عمّا سبقه؛ لكونِهِ استئنافًا ابتدائيًّا متفرِّعًا عمّا تقدَّم من التّحريض على الإنفاق في سبيل الله تَعالى، ومِن الإشارة إلى الفتح، فجاء هذا الاستئنافُ إعذارًا للمتولّين من المنافقين؛ ليَغْتَنموا فرصة التّدارك بإصلاح حالهم، وذلك باتّباع الرّسول ﷺ، والتّبصّر في هدي القرآن، كما أنّ فيه إنذارًا صارخًا لهم؛ إنْ هُم لم يَرْعَووا؛ إذ يواجهون الحجّة السّاطعة التي تلزمهم بالحقّ إلزامًا، فإن أعرضوا، وتعنّتوا، فإنّ تقويم اعوجاجِهم لا يكون حينئذٍ إلّا بالسّيوف القاطعة، وهو ما صرّح لهم به دون موارَبَة[1].

باب التوبة مفتوح، والكيّس الفطن من يغتنم الفرص

بلاغة التوكيد بـ (اللّام) و(قد):

اللّام الدّاخلة على (قد) في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ لامُ قسَمٍ مقدَّر، والتَّقدير: واللّه لقد أرسلنا رُسُلَنا[2]، فجاء هذا الأسلوبُ؛ ليجمعَ بين القسم المكنون و(قد) المحقِّقة، التي تجعل وقوعَ الفعل الماضي محسوسًا ومحقَّقًا في زمن القائلِ، فيتضاعف التّوكيد[3]، ويتعاظم أثرُ الجُمْلَةِ في تقرير الخبَر، وتثبيته في القلوبِ، ويُزال العُذْرُ؛ إذ أقام اللّهُ تَعالى الحُجَجَ عليهم بإرسال الرّسل بالمعجزاتِ الحاضرة، والكتب الباقية[4]، فجاءت اللّامُ المشيرةُ إلى القسَم المقدَّر و(قد) التي للتّحقيق، فيَعْظُمُ بذلك قوّةُ البيان، ويزدادُ وضوحُ حقيقة الإرسال، وتمام الحجّة على المخاطَبين.

في قوّة التّقرير في الإرسالِ إتمامٌ للحجّة وقطعٌ العذر

وتأكيدُ الخبرِ بلامِ القسَمِ وحرفِ التّحقيق يعود إلى ما اشتمل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 415.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 227.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 357.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 299.

عليه الخبر من بيان ما تضمّنه إرسالُ رسُلِ اللّهِ تَعالى وإنزالُ كتبه من إقامة القسط والعدل بين النّاس، ومن التّحذير والتّعريض بحَمْل المُعْرِضين على السّيف؛ إن استمرّوا على غَلْوائِهم وتماديهم في الباطل[1].

إعظامُ الخبَرِ تأكيدٌ لمقصد القِسْطِ ووعيدٌ للمُعْرِضين

سِرُّ التّعبير بالإرسالِ دون البَعْثِ في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾:

اختير فعلُ الإرسال في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ لِما في مادَّتِه من الإيحاء بالاصطفاءِ والرّعاية، ولِما يُشعر به من التّوجيه المقصود برسالةٍ ممتدّةِ الأثر؛ إذِ الإرسالُ في اللّغة دالٌّ على إرسال في مهمّة بيّنةٍ فيها بيانٌ وتبليغ، والتّبليغُ إذا اقترنَ بالبيِّناتِ والحُجَجِ والبراهينَ؛ كان أوسعَ أثرًا، ولذا كان اختيارُ الإرسالِ ههنا أنسبَ.

اصطفاء الرّسل تشريف لهم ورحمة ورعاية للبشر

دلالة إسنادِ فعل الإرسالِ إلى ضميرِ العَظَمةِ:

في إسنادِ فِعل الإرسالِ إلى ضمير العظَمَةِ (نا) في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ إشارةٌ إلى عظمة الباري سُبْحانه، وقدرته المطلقة[2]، وفيه تعظيمٌ لشأنِ الإرسالِ.

تعظيمٌ للإرسالِ وللمُرْسِلِ سُبْحانَهُ

دلالَةُ التّعبير بالرُّسُل دونَ الأنبياء:

التّعبير بالرّسل دون الأنبياء في قوله تعالى: ﴿رُسُلَنَا﴾ توسيعٌ لدلالة اللَّفظ؛ على القول: إنَّ المراد بهم الملائكة[3] المرسلونَ إلى الأنبياء - وإنْ لم يكن هو الوجه الأظهر وفاق ما سيأتي بيانه - فالملائكة يصْدُقُ عليهم لفظ الرّسل، ولا يُطلقُ عليهم لفظُ الأنبياء، وقد رويَ أنّ جبريلَ ﷺ نزل بالميزانِ، فدفعه إلى نوحٍ ﷺ قائلًا: مُرْ قومَك يَزِنوا به[4].

الملائكة رسلٌ موكَّلون بالوحيِ لا بالنّبوّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 415.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 299.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 480.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 113.

دلالة جمع الرُّسُلِ:

بلاغٌ من الرّحمن يشمَلُ الملائكةَ والإنسانَ

استُعْمِل لفظُ الرُّسل جمعًا في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ دون المفرد (رَسولَنا)؛ تأليفًا بين تأويلين مُحْتَملين، فإمّا أن يكون المرادُ بالرُّسُلِ الملائكةَ المُرسَلين إلى الأنبياء، أو المراد الأنبياء المُرْسَلين إلى أممِهم، وهو الأظهر[1]، فجاء الجَمْعُ ليشمَل هذا التّعدد، ويعظّم مقامَ الرّسالة، والمُرسلين.

رسالة موصولَةٌ بسُنن الأوّلين وإن جحَدها المكابرون مِنَ المتأخّرين

وهذا الجمعُ جاء أيضًا لإفادة أنّ ما جاء به محمّد ﷺ ليس بدعًا من الرّسل، وأنَّ مكابرةَ المنافقين وعماءَ قلوبِهم عن إدراك سنّة الله تَعالى في خلقه لا يغيّر من حقيقة الإرسالِ شيئًا، فجاء لفظُ الرُّسُلِ جمعًا مُصدّرةً جُملَتُهُ بالتّأكيد؛ تنزيلًا للسّامعين منزلة من يُنْكِرُ أنّ الله تَعالى أرسل رسلًا قَبْلَ محمَّد ﷺ[2].

جميع الرّسل على نهج الحقّ ساروا، وبالصِّدْقِ والإبلاغ في الخَلْقِ أناروا

و(الرُّسُل) بهذه الصّيغة الجَمْعيَّة واردٌ لإظهار أنّ جميع الرّسل جاؤوا بالحقّ، وأنَّ شرعَهُم قائم على الصِّدْقِ والإبلاغ[3].

فضلًا عمّا تقدّم فإنَّ لفظَ (الرّسُل) مجموعًا مستعمَلٌ في سياق التَّعظيم؛ ليبيّن علوَّ قدر الرّسالة وشمولها، ولإظهارِ أنّ كلَّ رَسولٍ مِنَ الرُّسُل قد جاء حاملًا الحَقَّ المبينَ[4].

التّعظيم بشمول لفظ الرُّسُل وعلوِّ قَدْرِ الرّسالة

سِرُّ التّعبير بالرُّسُل دونَ المَلائكَةِ:

لمّا كان الأظهر أنَّ المقصودَ بالرّسل في هذا الموضع جنسُ البَشَر من بني آدم[5]، مع احتمال دخول الملائكَةِ في اللَّفْظِ؛ جاء التَّعبير بلفظ الرّسل دون الملائكة؛ إذ لا يُناسب مقام التّبليغ إلى النّاس إلّا مِن جنسهم؛ ليكون أقرب إلى الفهم، وأدعى للقبول، ودخولُ الملائكة في لفظِ الرّسل يُرادُ به إرسالُهُم إلى الأنبياءِ لا إلى البشَرِ.

الرّسُلُ مِن جنس البشرِ، فهُم أقرب للإفهامِ وأدعى للقبولِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 212.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 415.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5096.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 470.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 113.

دلالَةُ إضافة الرّسل إلى ضمير العظَمَةِ في قوله: ﴿رُسُلَنَا﴾:

بيانُ عظمَةِ المنزلَةِ ورِفعَةِ القَدْرِ

أُضيفَ لفظُ الرُّسُل إلى ضمير العَظَمةِ (نا) في قوله تعالى: ﴿رُسُلَنَا﴾؛ للإيذانِ بعظيم منزلتهم، ورفيع قدرهم؛ إذْ هُم صفوةُ الخَلْقِ الذين نالوا غايةَ الإجلال؛ لِما شَرَّفَهُم مِنَ الاتّصال به سُبحانه، من الملائكةِ المكرّمين والأنبياء المصطفين، عليهم أجمعين أزكى الصّلاةِ وأتمّ التّسليم[1].

تكريمٌ في الإرسالِ وعلوٌّ في المنزلةِ والمآلِ

وفي الإضافة هنا أيضًا تشريفٌ وإظهارٌ لعلوّ مكانتهم وقدرهم عند اللّه تَعالى[2]، وأنّ الإرسالَ الإلهيَّ لا يقتصر على مجرّد الرّسالة، بل يتضمّن تكريمَ هؤلاء المرسلين ورفعَ منزلَتِهم.

بلاغَةُ الجِناس في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾:

تقاربٌ لفظيٌّ بين الإرسال والرّسل يُضفي جمالًا صوتيًا

تضمّنت الآية الكريمةُ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ جناسَ الاشتقاقِ؛ إذ تقاربت كلمتا الإرسالِ والرّسل في اللّفظ، واختلفتا في بعض الحروفِ والتّركيب[3] ممّا أضفى على النّص جمالًا صوتيًّا رقيقًا، وقوّة في العبارة تناسب التوكيد في المطلع.

دلالةُ الباءِ في قولهِ: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾:

اقترانُ الإرسال بالدّليل السّاطعِ، يُثبِتُ صِدْقَ الرّسالة ويهدي إلى التّوحيد القاطِع

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ دالّةٌ على مَعْنى الإلصاقِ والمُلازمة؛ إذ تُفيد أنّ الرّسل أُرسلوا، وهم مُقْتَرنون بالدّليل والبرهان والمعجزةِ، فلا تنفكُّ دعوَتُهم عن الحجّة السّاطعة التي تشهد بأنّ اللّه تَعالى هو الإله الحقّ، وتشهد بصِدْقِ نبوّةِ الرُّسُلِ، وصحّة دعوتهم إلى عبادة اللّه تعالى وحده لا شريك له[4].

ففي تعديةِ فِعْلِ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ بالباءِ دلالةٌ على أنّ الرّسل جاؤوا مُتَلَبِّسين بالبيِّناتِ حاملين لها، لا مجرّدين عنها، فكانت البيِّناتُ ملازمةً لَهُم في دَعْوَتِهم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 299.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 357.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 517.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 357.

دلالة التّعبير بلفظِ (البَيِّنات) دون الآيات أو المعجزاتِ:

إقامةُ الصّلاة وإيتاءُ الزّكاة بيّنات خالصة للهِ تَعالى

لمّا كان المرادُ مِنَ البيّنات في هذا السّياق مظاهرَ الإخلاصِ للّه تعالى في العبادة، مِن إقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة[1]، لا محض الآيات الخارقة والمعجزات؛ اسْتُعْمِلَ هذا اللّفظ دونَ غيرِه.

شمول البيّنات للحُجج والمُعْجِزاتِ

ويجوز أن يكونَ استعمالُ هذا اللّفظ هنا راجعًا إلى اختلاف تفسير لفظ الرّسل، فالملائكة تُرْسَلُ بالمعجزات، كإرسال جبريلَ ﷺ بالقرآنِ إلى نبيّنا ﷺ، أو إرسالُهُ وغيرِهِ للأنبياء بِمُعْجِزاتٍ مخصوصةٍ، فإن فُسِّر الرّسل بالملائكة؛ كانت البيِّنات بمَعْنى الحُجَج، وإن فُسِّر بالأنبياء؛ كانت البيّناتُ شاملَةً للمُعْجِزاتِ والحُجَجِ جميعًا[2].

الحُجَجُ السّاطعةُ ومن ضمنها المعجزات من دلائل الدعوة

ويجوز أن تكونَ (البيّنات) في الآية هي الحجج السّاطعة الدّالّة على أنّ ما يدعون إليه هو مرادُ اللّهِ تَعالى، وتدخل المعجزات في عمومها دخولًا أوّليًّا[3].

دلالَةُ جَمْعِ البَيِّنات دونَ إفْرادِها:

المعجزات كثيرةٌ ظاهرةٌ، والأدلّة وفيرةٌ قاهِرَةٌ

استُعْمِل لفظُ (البيِّناتِ) في قول اللّه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالجَمْعِ دونَ الإفراد؛ للإيماءِ إلى كثرتِها وعظَمَتها، فهي معجزات ظاهرة، وأدلّةٌ قاهرة، ويجوز أن تكون (البيِّناتُ) الأعمالَ التي تدعو إلى طاعة اللّه سبحانه، والإعراض عمّا سواه[4]، فهي على كلا الاحتمالين كثيرَةٌ متكاثرَةٌ.

دلالةُ عطف ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ على ﴿أَرْسَلْنَا﴾:

تمام النّعمة بإرسالِ الرُّسُل وإنزالِ الكُتُبِ

عُطِفَ فعل الإنزال على فعل الإرسالِ[5]، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 260.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 160.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 469.
(5) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 473.

﴿أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ﴾؛ لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ إذ الجملتانِ اتَّحدتا في الخبريَّةِ، وبينَهما تناسبٌ في اللَّفظ والمعنى، فأمّا في اللَّفظ؛ فإن الجملتيْنِ فعليَّتانِ ماضويَّتانِ، وأُسنِدا إلى ضمير العظمة (نا) الرّاجع إلى الله تعالى، وأمّا في المعنى؛ فلما فيه مِنْ بيان تمامِ النّعمة بإرسال الرّسل وإنزال الكتُب معَهُم بوصفها دلائل الهداية، وسبل الرشاد.

دلالة التَّعبير بـ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾ دون (نزّلنا):

نـــزول الـكـتـب الـسـمـاويّـة دفـعـي، ونـزول القرآن تدريجيّ

في التَّعبيرِ بفعل الإنزالِ إيماءٌ إلى عظمة الأنبياءِ عليهم الصّلاة والسّلام، وأنّهم لعلوّ مقاماتهم بالإرسال، كأنّهم أتوا إلى العبادِ مِن موضعٍ عالٍ جدًّا[1]، وفيه إظهارُ التّقدير والرّفعة في الإرسال، وبيانُ أنّ الكتبَ المنزَّلة جاءت مرفوعة القدرِ والهَيبةِ.

واختيرَ فعل الإنزالِ دون التَّنزيلِ، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾ دون (نزّلنا)؛ لأنَّ الإنزالَ يكون دفعيًّا، والتنزيل تدريجيٌّ، وكلُّ كتابٍ مِنَ الكتُبِ الإلهيَّةِ قد نزلَ دفعةً واحدةً، إلّا القرآنَ الكريم فإنَّه نزل نزولًا تدريجيًّا، فكان التَّعبيرُ بالإنزالِ هنا مراعاةً للغالبِ الكثيرِ، ويجوزُ أن يكونَ التَّعبير بالإنزالِ شاملًا عامًّا، فإنَّ القرآن الكريم له تنزيلٌ دفعيٌّ أيضًا، وهو نزولُهُ إلى بيت العزَّة في السَّماءِ الدُّنيا.

بلاغَةُ المجاز في فِعْلِ الإنزالِ:

وحـيٌ بالكتاب مـن فـوقِ سَبْعِ شـــدادٍ، وأمـرٌ بـالمـيـزان ليُقامَ العدلُ في البلادِ

قول اللهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من باب المجاز؛ لأنَّ إنزالَ الكتاب يُرادُ به تبليغُه بواسطة الملَك مِن السّماء، كما أنّ إنزالَ الميزانِ يُرادُ به تبليغُ الأمر بالعدل بين النّاس[2]، وفيه تصويرٌ للتَّبليغِ والإنزالِ المعنويِّ في صورةِ الإنزال الحِسّيِّ؛ إشعارًا بجلالِ الكتُبِ الإلهيَّةِ وعلوِّ قَدْرِها.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 299.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.

دلالَةُ إسنادِ فعل الإنزالِ إلى ضمير العظَمَةِ:

أُسنِدَ فعل الإنزال إلى ضمير العَظَمَةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾؛ إشارة إلى عظمة الفعل وجلال المُنزِل، فلا شيءَ أعلى مِن عظمة الخالقِ سُبحانه[1]، فأغنَى ضميرُ العظمةِ عَن التّصريحِ؛ لِما تدلُّ عليه مِنَ الكبرياءِ المُطْلَقِ، والسّموِّ الذي لا يُدانيه علوٌّ.

الإشـــارة إلى عظمة الفعلِ، والاستدلال على الكبرياءِ المُطْلَق

دلالةُ استِعمالِ فِعْلَيِ الإرسالِ والإنزالِ ماضيَيْنِ:

عُبِّرَ بالفِعْلِ الماضي في قوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ ﴿وَأَنزَلْنَا﴾؛ لأنّ الإرسالَ والإنزال حقيقة واقعةٌ ثابتةٌ، وفي ذلك تعريضٌ وذمّ للمخاطَبين، وإيقاعُ الملامة عليهم، فكان في صيغةِ المُضيِّ تثبيتٌ لِلوقوعِ في الأذهانِ، وإظهارُ أنّ ما جاءت به الرّسل قد تحقَّق فلا مجال للشّكِّ أو الإنكار.

تثبيتُ الحقّ في الأذهان، وإيقاعُ الملامةِ على أهل الشّكِّ والطّغيانِ

دلالَةُ التّعبيرِ بالظّرفيّة ﴿مَعَهُمُ﴾ دون (إليهم) أو (لهم):

في التّعبير بالظّرفِ ﴿مَعَهُمُ﴾ دون التّعبير بـ (إليهم) أو (لهم) تقريرٌ لِلحال، أي: وأنزلنا الكتابَ صائرًا معهم، مُقدّرًا صحبته لهُم؛ لأنّ الرُّسل مرسَلونَ هُم، والكتابُ مُنْزَلٌ معَهُم[2].

إنـــزال الكـتـب مصاحب لإرسال الرسل

ويجوز أن يكون هذا التّعبيرُ واردًا على معنى المقارنةِ بتنزيلِ الاتّصال منزلةَ المقارنة بين الرّسل والكتاب[3]، فجاءت الظّرفيّة لتبيّن ملازمةَ الكتابِ للرّسل أثناء الإرسالِ وارتباطهما في تبليغ الدّعوةِ.

الكتابُ والرّسولُ في ميدان التّبليغِ مـتـلازمـانِ لا يَفْتَرِقانِ

دلالَةُ تَقْديمِ ﴿مَعَهُمُ﴾ على ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾:

قُدِّم الظَّرفُ ﴿مَعَهُمُ﴾ على ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ لإفادةِ الحصْرِ والقصْرِ؛ فإنَّ الكُتُبَ الإلهيَّةَ محصورةٌ في الرّسل ﷺ، فجاء التّقديم لتأكيد ملازمتِهِ لَهُم،

انحصارُ الكتب الإلـهـيَّـةِ في الرُّسلِ ﷺ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 299 - 300.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 113.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 188.

وارتباطه بهم، فتُبْرِزُ هذه الصّياغةُ خصوصيَّةَ الرّسالة، وتُشَدِّد على تميُّزِ الرّسل، وحصر الكتاب فيهم لقصْدِ تبليغِ كلامِ اللّهِ تَعالى لأقوامِهم.

دلالَةُ (أل) في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بـ (أل) هُنا تعريفُ جِنْسٍ، أي: إنَّ المراد: وأنزلنا معهم كتبًا من جنس ما يُسمّى كتابًا، كالتّوراة والإنجيل والقرآن[1]، لا كتابًا بعينه، فكان التّعبير دالًّا على وحدة النّوع والمصدرِ.

سرّ التّعبير بـ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بصيغة الإفراد:

الكتُبُ الإلهيَّةُ متّحدَةٌ في الدّعوة إلى توحيدِ اللهِ تَعالى

لفظُ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ وإن كان مفردًا في اللَّفْظِ إلّا أنَّه في معنى الجَمْعِ؛ لأنّه اسمُ جنسٍ، فيَعُمُّ جميعَ الكتبِ المنزلةِ[2]، ويجوز أن يكون ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بمعنى الوحي[3]، وأوردَ مفردًا؛ لبيانِ أنّ المقصودَ هو الجوهر الواحدُ للرّسالة المنزلة، فلا اختلافَ في أصلِ الدّين، وهو توحيدُ اللّهِ تَعالى، وكذا لا خلاف في غايتِهِ والحقّ الذي تحمله هذه الرّسالاتُ، وإن اختلفت في تفاصيلِ الشَّرائعِ، فكان الإفرادُ إشارةً إلى اتّحاد الغاية من هذه الكتبِ، وترابُطِ الدّعوة إلى الحقّ والخيرِ[4].

دلالة التعبير عن الشّرائع بكلمة ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

شرائع الله تعالى كاملة شاملة

التّعبير عن الشّرائع بكلمة ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ تُضفي على هذه الشّرائع صفاتِ الكمال والشّمول والدّقة والثّبات، فـ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ يرمز إلى دستور مكتمل، ومنظومة متكاملة، لا مجرّد إرشادات متفرّقة، كما أنّ الكتابة تضمَنُ الوُضوح والدّقة في الأحكام، وتُسهم في حفظِها من التّحريف عبر الزّمنِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 269.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 480.
(4) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 786.

بلاغةُ عطفِ (الميزان) على ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

الكتاب لحفظ الدّين، والميزان لحفظ الحقوقِ

عُطِف (الميزان) على ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ استدلالًا على تكامُلِ الدّين والعدلِ، فالكتاب لحِفْظِ حدودِ الدّين بما يَحْتَويه من الأحكام وشرائع، والميزان لحفظ الحقوقِ والمعاملات بما يكشفه معنى العَدْل فيه؛ تحقيقًا للهِدايَةِ الشّاملَةِ، فلا زيادَةَ في الحقِّ ولا نُقْصانَ[1]، وتأكيدًا على وجوب إقامة العدلِ بين النّاس، ويجوز أن يكونَ المرادُ بالميزانِ الآلةَ التي يوزن بها، وهو يرجِعُ أيضًا إلى مَعْنى العدل[2]، لكِنْ ذُكِرَ هنا؛ للإشعارِ بأهمّيَّته وبيانِ أنّ إتمامَ الرّسالة وإنزال الكتاب لا يكتَمِلُ إلّا بتحقيق العدلِ.

الـكـتـابُ نـورٌ والمـيـزانُ عـدلٌ، فـمَـن حـكَـم بِهِما؛ فقد بلغ المقصودَ

وجاء التَّعبير بلفظ (الميزان) بعد ذِكْرِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مع أنَّ معانيَ الميزانِ متضمِّنة فيه؛ تنبيهًا على أنَّ فهْمَ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يحتاج إلى عقلٍ صافٍ، وفكر عميقٍ، وصبر طويلٍ، فلولا ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لضلَّ العقلُ، ولولا العقل؛ لما انتفع بالكتاب، فعقّب بالميزان وهو ما يشترك في إدراكه الكبيرُ والصّغير والجاهل والعالم؛ ليكون أقربَ وسيلة لفهم مقاصدِ الكتاب، وفي التعقيب به إشارةٌ إلى أنّ مَن حَكَمَ بالكتاب مجرّدًا عن هوى النّفس؛ فقد بلغ المقصود دونَ زيغٍ أو مَيْلٍ[3].

سرّ تخصيص الميزان بالذكر:

ضابطُ الحقوق مستحقٌّ لعلوِّ المقامِ ورفعة الشّأن

خُصّ الميزانُ بالذِّكر؛ لكثرة استعمالِه، ولا سيّما في النَّقدين؛ إذْ هو أداة المعاملات وضابطُ الحقوق، وذكر الحقوق على الإطلاق مع أنّ المقصودَ الحقوقُ الموزونةُ منها؛ لوضوحِ المُرادِ[4]، ولكون (الميزان) وسيلةُ انتظام أمورِ البشر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: 105]،

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 535.
(2) الخازن، لباب التأويل: 4/ 252.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 300.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 471.

كان في التَّنصيصِ عليه تنبيهٌ على عَظيم شأنهِ ورفيعِ مكانَتِه، فليس المرادُ من (الميزان) إلهامَ الرُّسُلِ وضعَ آلاتِ الوزنِ، فذلك ممّا لا يستحقّ التَّنبيهَ عليه[1].

بلاغَةُ الاستعارة في قوله: ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾:

التَّعبير بالميزان جارٍ على سبيل الاستعارة؛ إذْ أُريدَ به الحُكمُ بالوحي؛ لما فيه من إظهار الحقّ وإبطال الباطل، واعتبارِ العدل والتّسوية بين النّاس[2]، فكأنّ الميزان صار مِثالًا ناطقًا للإنصاف، ومقياسًا جامعًا للفَصْلِ بين الخصوم، يُقوِّم ما اعوجّ، ويُظهر ما خَفيَ.

الحكم بالقرآن يُظهر الحقَّ، ويبطلُ البُهْتان، ويقيم العدل بين الناس

واسْتُعير الميزانُ للعَدْلِ بين النّاس في أداءِ حقوقهم؛ لأنَّ من لوازم الميزانِ وجودَ طرفَيْن يُراد معرفةُ تَكافُئِهما، واعتبارِ توازنهما، فشُبِّه به ما يُقام به القسط في المعاملات والأحكام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: 58]، وهذا الميزانُ لَم يترك النّاسَ لأهوائِهم، بل جاءت كتبُ الرّسل مبيّنة معالِمَه[3]، مرشدةً إلى حدوده.

القِسطُ لا يُتْرَكُ لـلأهـواء بـل تحدِّده الشّرائعُ

بلاغَةُ إفراد ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾:

المرادُ بلفظ ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ في الآية: إنزالُ عينِه، فقد روي أنّ جبريل ﷺ نزل به، فدفعه إلى نوح ﷺ، وقال له: مُرْ قومَك يَزِنوا به[4]؛ ليقوم أمرُهُم على العدلِ والقِسْطِ، فهو على هذا ميزانٌ واحد.

إنـزالُ الميـزان حقيقةً أداةٌ قائمةٌ بذاتِها لتحقيقِ العدْلِ

ويجوز في (أل) من قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ أن تكونَ لإرادةِ الجِنْسِ، فيراد به معنى الميزانِ عَلى إطْلاقِه، أي: كلّ ما يتحقَّق به العدْلُ، وتقوم به المساواةُ بينَ النّاسِ.

بالميزان تُقامُ المساواةُ ويُذكرُ الحقُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 544.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.
(4) الرازي، أنموذج جليل، ص: 509، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 113.

سِرُّ عدَمِ تكرار فِعْلِ الإنزالِ مَعَ الميزانِ:

تبايُنُ جهة الاعتبارِ بينَ التّشريعِ بالوحي والتّقدير بالوضْعِ

لَم يُذْكَر فِعْلُ الإنزالِ مع الميزانِ، كما ذُكر مع ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لأنَّ الإنزال في حقّ الكتاب إنزالٌ مِنَ السّماء وحيًا وتشريعًا، أمّا في حقّ الميزانِ؛ فهو وضْعٌ وشَرْعٌ للتّقدير به، كما قال تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرّحمن: 7][1]، فجاء عطفهُ عَلى ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ دون تكرار فعل الإنزال؛ إشارةً إلى اختلاف جهة الاعتبارِ بينَهُما، فالكتاب تشريعٌ بالوحي، والميزان تشريعٌ بالوَضْعِ.

الميزانُ صُنْعُ البشَرِ مَع إمداد الإلهِ بأسبابِهِ ومقوِّماتِهِ لتحقيق العدْلِ

ويجوز أن يكونَ ترك فعل الإنزال مع الميزانِ؛ لكونِهِ من صُنع البشر لا ممّا نزل من السّماء إنزالًا مباشرًا، فإنزال الميزانِ معناهُ إنزالُ أسبابِهِ ومقوِّماته، كالمطر الذي ينبت الكتّان والقطْن والخشب، وهي موادّ تُصْنَع منها أدوات القياس، وقَد أُمِرَ النّاسُ بصنْعه، وأُلْهموا كيفيّة استعماله، إمّا بإلقاءِ الفِكْرَةِ في روعِهم، أو بإلهام سَماويٍّ[2].

دلالة تقديم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ على ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾:

صلاحُ القُلوب مقدَّمٌ على عَدْلِ الميزانِ

قُدِّمَ الكتاب على الميزان؛ للدّلالةِ على أولويّة ما فيه مِن شرائع الدّين، وأمْرِ الآخرة؛ إذ إنّ الميزانَ يتعاطاهُ النّاسُ في الدّنيا لأمورِ معايِشِهم في أخذهم وإعطائهم، بخلاف الكتابِ فإنَّهُ ينظّم علاقتَهُم بربّهم، ويهديهم لِما فيه صلاحُ أُخراهم، والميزانُ فيه تَناصُفُهُم في دُنْياهُم[3]، فجاء التّرتيب؛ ليبيّن أنّ إصلاح النّفوس مقدَّمٌ على إصلاح المعاملاتِ.

أسبقيّة رعاية الصالحِ الرّوحانيَّة على المصالحِ البَدَنيَّة

والكتابُ آلَةٌ يُتوسَّل بها إلى إدراك ما ينبغي من الأفعال النّفسانيّة؛ إذ به يتميّز الحقّ من الباطل، وتفرز الحجّة عن الشُّبهة، فهو نور العقل، وهداية الرّوح، وأمّا (الميزانَ)؛ فهو ما يُتوسَّل به إلى

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 1/ 251.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 471.
(3) مكي القيسي، الهداية: 11/ 7332.

ما ينبغي من الأفعال البدنيّة من ضبط المعاملات، وتحديد الحقوق، ولَمّا كانت رعاية المصالح الرّوحانيّة أشرف الأقسام، وأعلى في المرتبة من رعاية المصالح الجِسمانيّة؛ روعي هذا التّرتيب، فُقدِّم ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾[1].

معنى اللّامِ في قوله: ﴿لِيَقُومَ﴾:

إقامةُ العدل بين الأنامِ، وتحقيق التّناصُفِ في المعاملاتِ والأحكامِ

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾ هي لامُ (كَيْ)[2]، فهي للتّعليلِ، أو هي الدالَّة على العلّة الغائيّة[3]، وقيامُ النّاسِ بالقسط يحتَمِلُ أن يكون تعليلًا لإنزال الميزانِ وحدَهُ، بوصفه أداةَ التَّناصُف في المعاملات الظّاهرة، ويجوز أن يكون تعليلًا لإنزال الكتابِ والميزانِ معًا؛ لأنّ القِسْط هو العَدْلُ في جميع الأشياء، مِن سائِر التّكاليف الظّاهرة والباطنَة؛ إذ لا جَوْرَ في شيءٍ منها[4]، ويكون معنى: إنزال الكتاب والميزان كي يعمل النّاس فيما بينهم بالعدل[5]، فيُقيموا الحقوق، ويتَناصفوا في معاملاتهم.

دلالَةُ التّعبير بالفعل ﴿لِيَقُومَ﴾:

دلالةُ القيامِ على قابليَّة التَّحرُّك نحوَ معالي الأمورِ

اختيرَ فعلُ القيامِ في قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾ دونَ غيرِهِ مِنَ الألفاظِ، مثل: (ليحكم) أو (ليتعامل)؛ لارتباطِ فعل القيامِ بدلالَةٍ حركيَّةٍ شاملةٍ، لا تختصّ بمجالٍ واحدٍ، كالتّحكيم أو التّعامل المَاليّ أو الاجتماعيّ، بل تشمَلُ القابليَّة العامّة للنّهوض إلى الفضائِلِ والمَعالي[6].

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿لِيَقُومَ﴾:

الاستمرارُ في القيامِ بِالعَدْلِ

اختار النَّظْمُ القرآنيُّ الفعلَ المضارعَ ﴿لِيَقُومَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ بدل المصدر الصَّريحِ (لإقامَة) يهدِف

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 470.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 244.
(3) الشنقيطي، أضواء البيان: 3/ 456.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 113.
(5) مكي القيسي، الهداية: 11/ 7332.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 300.

إلى إبراز الحركة الفعليّة والاستمراريّة في التّطبيق؛ إذ يدلُّ الفعلُ المضارع على الانطلاق العمليّ للنّاس نحوَ العدلِ بكلّ طاقاتهم، بخلافِ المصدرِ فإنَّه يَكْتَفي بالإشارةِ إلى أصلِ العَمَلِ بقَطْعِ النَّظر عن دلالةِ الحرَكَةِ أو الاستمرارِ.

بلاغة المجازِ في قوله: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾:

قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ يُحْمَلُ على المجاز؛ إذ ليس المقصود قيامًا جسديًّا، بل هو قيام معنويّ بالعدْلِ، أي: التزام عمليّ بما أُمروا به من أحكام الإنصافِ؛ ليُعامِلَ بعضُهُم بعضًا بالنّصفة[1]، وتأديةِ الحقوق على وجهها الأمثلِ، فيكون قد شُبِّه القيامُ المعنويُّ – وهو التزامُ العَدْلِ والعمَلُ به – بالقيامِ الحسّيِّ وهو انتصابُ الجسَدِ واستقامَتُهُ بجامعِ أنَّ كليهما فيه مَعنى النُّهوضِ والجِدِّ والتَّوجُّه نحوَ الغايةِ، ففي الآيةِ إخراجٌ للمعنى في صورةٍ محسوسةٍ؛ ليكونَ أقربَ إلى الفَهْمِ وأعلقَ بالذِّهْنِ، وأيضًا فإنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ العَدْلَ لا يتأتّى بالرُّكونِ والكسَلِ والتَّشهّي، بل لا بُدَّ مِنَ الاجتهادِ والجدِّ والحَزْمِ والعزْمِ.

لا يتحقَّقُ العدلُ بالدَّعَة والسُّكون، بل بالاجتهادِ والحَزْمِ

والقيامُ هنا ليس مجرّد انتصابٍ جسديٍّ، بل المرادُ به صلاحُ الأحوالِ واسْتِقامَتُها؛ إذ المقصودُ أن يُشيَّد بنيانُ العَدْلِ في المُجْتَمَع، ويُؤسَّس على قواعد الإنصاف والتّناصف؛ لأنّ استقامةَ الأمورِ هي السَّبيلُ إلى تَيْسيرِ العمَل[2].

استقامةُ الأحوالِ وبناءُ العَدْلِ الاجتماعيّ على قواعد الإنصافِ

دلالةُ إيثار ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ للدّلالة على عموم العبادِ، لا خصوص الحكّام؛ تنبيهًا على أنّ إقامة العدل مسؤوليَّة جماعيّة، يشترك فيها النّاسُ كلّهم

إقامة العدلِ واجبٌ على جميعِ العبادِ

(1) الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 4/ 253.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.

بلا استثناء[1]، وعليه فـ (أل) في ﴿ٱلنَّاسُ﴾ للاستغراقِ، فتفيدُ عمومَ النّاسِ جميعًا.

دلالَةُ التّعبيرِ بالباءِ في قولِهِ: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾:

تصويرُ اقترانِ النّاسِ بالعَدْلِ حتّى يصيرَ طَبْعًا لَهُم

الباءُ في قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ باء التّعدية، وهي تُفيدُ إظهارَ التَّعلُّق الشَّديدِ بينَ القيامِ والمقصودِ مِنْهُ، وفيها معنى الإلصاقِ أيضًا، فتكون مُصوِّرةً لشدَّةِ اقترانِ النّاس بالعدل حتّى كأنَّهم ملتصِقونَ بِهِ لا ينفكّون عَنْهُ في أقوالِهم وأفعالِهم، حتّى يكونَ سِمَةً لَهم وطبْعًا، يمشون به في حياتهم، ويحكمونه فيما بينهم، فيقوم الحقّ، وتستقيم الأمور[2].

بلاغَةُ إيثارِ (القِسطِ):

العدلُ المحسوس حين يُعطي المرء قسط غيره كما يأخذ قسط نفسه

(القسط) هو العدلُ الشّامل في جميعِ شُؤون الحياةِ، يُجْرى به الحقّ دون ميلٍ أو حَيْفٍ، ويُعطى كلُّ ذي حقٍّ حقَّه، ويُتاح لصاحب الحقّ منازعة من احتواه[3]، وبالقسط يُقام التّوازن، وتُصان الحقوق، ويُرفع الجَوْرُ؛ ليكون أساسًا لحياة مستقيمةٍ، ومجتمعٍ عادلٍ، واختيرَ لفظُ (القِسطِ) دون (العدل)؛ لإبراز الإنصافِ العمليّ بين النّاس، أي: أن يُعطيَ كلّ أحدٍ قِسْطَ غيرِهِ، كما يأخذُ قِسْطَ نفسِه[4]، ممّا يجعل العدلَ نشاطًا ملموسًا، وتطبيقًا عمليًّا في الحياة.

سرّ التّعبير بـ (القِسطِ) بعد (الميزان):

تكامل المعيار العامّ للحقوق، والتجسيدُ العمليّ للعدلِ في تعاملِ النّاس

القسطُ أعمُّ وأشمَلُ مِن (الميزان) المذكورِ، فـ (الميزان) غالبًا ما يختصّ بالعدل بين طرفَيْنِ متنازِعَين[5]، بخلافِ القِسْطِ؛ فإنَّهُ يشمل الإنصاف والعدلَ في كلّ المعاملاتِ، فجاء ذكرهُ بالعامّ بعد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 300.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 471.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.

الخاصِّ؛ ليشمل تطبيقَ العدْلِ في الأحوالِ جَميعِها، فالقسْطُ يمثل الإنصافَ الواقعيّ في التّعامل بين النّاس، سواءٌ أأذْعَنوا للبيّنات لذاتها أم للرّغبة في الالتزامِ بها[1]، في حين يرمز الميزانُ إلى المعيار العامّ للحقوق والواجباتِ.

سرُّ التّعبير بـ(القِسطِ):

القسطُ دالٌّ على كمالِ العَدْلِ، والقسطاسُ: الميزانُ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ (القسْطِ) هنا دون (القسطاس) وهو - أي: القسط - مأخوذٌ في العربيَّة من لفظِ (القسطاس) عند الرّوم[2]؛ لما يدلُّ عليه لفظُ القسْطِ من كمال العَدْلِ وشمولِه، بخلافِ لفظ (القسطاسِ)؛ فإنَّه بمعنى الميزانِ، وقد تقدَّم مرادِفُهُ في لفظِ (الميزان).

معنى الواو في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾:

الرَّبْطُ بينَ مراتبِ الإنعامِ بالكتابِ والميزانِ والحديدِ؛ لإفادة التَّكاملِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على الجملةِ قبلها[3]، فكأنَّ الآية تقول: أنزلنا ما يهتدي به الخواصّ، وما يهتدي به أتباعهُم، وما يهتدي به مَن لَم يتبعهم، فالواو عاطفة، وليست معترضةً لقصْدِ تقوية الكلامِ كما توهَّم بعضُهم؛ إذ ليس في السّياق ما يقتضي الاستئنافَ أو الاعتراضَ، بل في المعنى ما يُنافيهِ[4].

سرُّ التّعبير بإنزال الحديد:

عظَمَةُ المصدَرِ ورفعَةُ المنْزَل

اختير لفظُ الإنزالِ دونَ الإخراج أو الخلق؛ لأنَّ الإنزال يوحي بعظمةِ المُنْزِل، وأهمّيَّة ما نزلَ مِنْهُ، فهو يحمِل دلالة تعظيمٍ وتفخيمٍ وتقديسٍ تُفيد أنَّه أمر عظيم مُنزَّل من مصدر سامٍ، بخلاف الإخراج والخلق فقد يَقْتَصِران على الجانب الفعليّ أو الحسّيّ دون حملِ هذا البُعْدِ الرّمزيّ والقُدْسيّ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 300.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416.
(3) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2403.
(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 161.

إيداعُ اللهِ تَعالى القـوَّةَ والمَنْفَعَةَ في الحديدِ

ويجوز أن يكون الإنزالُ واقعًا حقيقةً مِن سَماء القدرةِ الإلهيَّة[1]؛ إذ جَعَلَ اللهُ تَعالى في الحديدِ قوّةً ومنفَعَةً؛ ليكونَ أداةً للبِناءِ والدّفاع، وشاهدًا على حكمة الخالق وقدرته.

نُـزُلٌ مُـهَـيَّـأ من لدُن الرّحيم

ويجوز أن يراد بالإنزال معنى التّهيئة والإعداد، فهو من النُّزل الذي يُهيَّأ للضّيف، فكأنَّ الحديد نُزل إلهيٌّ كريم، أُعدَّ للإنسان، وهُيِّئَ له[2]؛ ليكون أداة للعمران، وسلاحًا للحراسة، وجعله الله تَعالى منّة عظيمة وأنعَمَ بهِ عليه.

سرّ تكرارِ فعل الإنزال مع ﴿ٱلۡحَدِيدَ﴾:

تـأكـيـدُ منفعة الحديدِ العمليَّة وصلته بتمشيةِ الكتابِ والميزان

أُعيدَ فِعْلُ الإنزال في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾، دون الاقتصارِ على ذِكْرِه مرّة واحدة مع ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لبيانِ مغايرة إنزال الحديد لإنزال الكتابِ، فالميزانُ يُعد تتمَّة لإنزال الكتابِ، بخلاف الحديد؛ فإنَّه مستقلٌّ عنه، فيظهر بذلك حُسْنُ العَطْفِ بين ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ و﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[3].

كما أنَّ تكرارَ فعل الإنزالِ جاءَ تأكيدًا لخصوصيَّة الحديدِ، وإبراز منفعتهِ للنّاس، بما يوضّح أنَّ تمشية أمْرِ الكتاب والميزانِ مرتَبِطَةٌ بالحِكْمَة العَمَليّة والفائدة الواقعيّة[4].

بلاغَةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾:

الإشـــارةُ إلى عـلـوِّ مـصـدرِهِ وخصوصيَّةِ أمرِهِ

في قولِ الله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ إشارةٌ إلى علوِّ مصدره، وخصوصيّة أمره؛ إذ تَنْزِلُ الأوامر الكونيَّة من السّماء، وهي محلّ الحوادث العظام والبدائع، كما يَنْزِلُ الماء الذي هو أصلُ الحياة، فتكون الأرض للحديدِ كالرّحِمِ للنُّطفة[5]، تستقبِلُهُ

(1) السمعاني، تفسير القرآن: 5/ 378.
(2) الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 4/ 253.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 472.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 255.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 301.

وتُنشئه بأمرٍ سماويٍّ، فالحديدُ يأتي من الأرض، لكنَّ إرادةَ كونِه تأتي من السّماء[1].

ويجوز أن يكون الإنزالُ مستعارًا لخَلْقِ مَعْدنه، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: 6]، أي: خَلَقَها لأجلكم، فالتَّعبير بالإنزالِ يُرادُ به الإيجادُ والتَّقديرُ، لا التَّنزيل الحسّيُّ، وفي التَّعبيرِ عن خَلْقِ الحديدِ بالإنزال تشريف للخَلْقِ، وتعظيم للنِّعمَة[2]، وقد يكون المقصودُ بالحديدِ خصوصَ السّلاح المتّخذ منه، كالسّيوف والأسنّة والنِّبال، فيكون الإنزالُ استعارةً لإلهام البشر صِناعتَه[3]؛ لِما فيه مِن قوّةٍ وبأسٍ ومنافِعَ.

خَـلْـقُ الحـديـدِ وإلـهـامُ البشَـرِ صناعتَهُ؛ لِما فيه مِن بأسٍ ومنافِعَ في تدبيرِهِ

دلالة المضيّ في فعل الإنزال، وإسنادِه إلى ضمير العظمَةِ:

في التّعبير بإنزال الحديدِ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ دلالةٌ على قِدَمِ إنزاله، فإنّ أصلَهُ مِن ماء السّماء بانعقاد جوهرِهِ في الأرض حتّى يُسْبَكَ، ويصيرَ حديدًا[4]، فهو مُنَزَّلٌ منذ زمَنٍ بعيدٍ.

إشـعـارٌ بسَـبْـقِ التّـقـديـرِ وقِـدَمِ الإنزالِ

وأُسنِدَ فعل الإنزالِ إلى ضمير العظمَةِ المرادِ بهِ اللّهُ تَعالى؛ لِما في ذلك من تعظيمِ للذّات الإلهيّة؛ إذ يوحي هذا الأسلوبُ بجلال المنزِل وعظمَةِ ما أُنْزِلَ، ولَمّا كان الإعراض عن البيّنات بعدَ الإيضاح موجبًا لدفع الفسادِ بأنواع الجهادِ؛ جاء هذا التّعبير مهدِّدًا المكذّبين، ومُمْتَنًّا للمؤمنين، جامعًا بين التّرغيب والتّرهيب على وجهِ التَّعظيم فيهما.

تعظيمٌ للمُنْزِل والمُنزَل، وجمعٌ بـين تـرغـيـب المؤمنين وتهديد المكذّبينَ

سِرُّ التّعبير بالحديدِ دونَ غيرِهِ من المعادن:

خصّ الباري سُبحانه تعالى الحديدَ بالذِّكْر دونَ غيرِهِ مِنَ المَعادِن؛ لِما فيه من قوّة البأس، ولذلك تُتَّخذ منه آلات الحرب

في الـحـديـدِ الـضّـربُ والـدّفـاعُ، فكان للقتالِ سلاحًا وللتّحصُّنِ دِرْعًا

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10812.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 300.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 416 - 417.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 483.

والقتالِ[1]، وإن شاركه غيرُه في الإيذاء والضّرب، لكنّه أكملُ في النّفاذ والجرح، فاعتاده النّاس في القتال، فكان البأسُ فيه أشدَّ، كما أنَّه يُتّخذ منه الدّرعُ للتّحصُّن، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم﴾ [الأنبياء: 80]، فخصَّه بالذِّكر لَمّا اجتمعَ فيه الضّربُ والدّفاعُ[2]، وفي كون المراد بالحديد في الآية السِّلاح، حثٌّ على القتال، وترغيبٌ فيه[3].

معدن فريدٌ، اجتمَعَ فيه الشِّدّة والانقيادُ

وخصَّه بالذِّكر دون سائر المعادن أيضًا؛ لكونِهِ أظهرَها في القوَّةِ والصّلابةِ واللّينِ والحدّة، فهو يُؤثِّرُ، ويقبَلُ التّأثير، ويُستَعْمَل في الضّرب والقَطْعِ، ويُعدُّ به كالبائن لما في الأرض[4]، فكان ذِكْرُه دالًّا على جِنْسِه؛ لِما اجتمع فيه مِن خصائصَ فريدةٍ تجمَعُ بين الشّدّة والانقياد، ممّا جعلَهُ أداةً للبَطْشِ والتَّحَصُّنِ، ومظهرًا للتّمكين في الأرضِ.

تجسيدُ قوّة الوحي وعدًا ووعيدًا، رحمةٌ للمؤمنين ونِقْمَةٌ على المكذّبين

ويُشير ذِكْرُ الحديدِ هنا إلى ما تَحْمِلُه الرّسالات من وعدٍ ووعيد، ورحمة وعذاب، فهو رمزٌ للبأسِ الذي يَنْزِلُ مع آيات الله تَعالى، زاجرًا المكذّبين، وناصرًا المؤمنين، فكلّ رسولٍ يحملُ بشريات للمُستَجيبين، ومهلكاتٍ للمعاندين، وتقوم الحجَّة ببعثته، والحديدُ هُنا يُجسِّدُ قوّةَ الرّسالة، بما فيها من منافعَ للنّفوس المؤمنة، وبأس شديدٍ على أهل الضّلال، دون أن تُغفل صفتَهُ المادّيَّة؛ إذ تُتّخذ منه أدواتُ الجهاد، فيجاهد الرّسلُ وأتباعُهم بألسنتهم وأيديهم، ويدفعون بَغْيَ أعدائِهم وعدوانهم بسُيوفِهم[5].

وفي تخصيص الحديد بالذِّكر مقرونًا بالبأس والمنفعةِ إشارَةٌ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 471.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 536، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 269.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 269.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 300 - 301.
(5) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 788 - 789.

إلى ما فيه من أدوات القوّة التي تحرس الأمن، وتحفظ التّوازنَ بين الأفراد والجماعات والأمم[1]، فهو رمْزٌ للرّدْعِ والرَّدِّ، وللمنفعَةِ والبِناء، يَجْمَعُ بين الشِّدَّة والرّحمة، ويُستَعمَلُ في إقامة الحقِّ، وصَوْنِ الحياة، وردّ العدوان.

بين القوّة والمنفعة تحقيقُ التّوازنِ وحمايةُ الأفرادِ والجماعاتِ

سِرُّ التَّعبيرِ بإنْزالِ الحديدِ:

جاء التَّعبير بإنزال الحديدِ في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾، دون الإلانَةِ الواردةِ في موضعٍ آخرَ في قوله تعالى عن داود عليه السلام: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠﴾ [سبأ: 10]؛ لأنَّ المقصود بيانُ خلقِهِ وتقديره، لا مجرّد تليينِه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الزمر: 6] أي: خلَقَها، و﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: 26]، أي: خلقَهُ لكُم، لا أنّه نزَل جاهزًا، فالتّعبير بالإنزال مثله يُراد به الإيجاد والتّيسيرُ[2]، وفيه إشارة إلى أنّ الحديدَ نزَلَ بتقديرٍ إلهيٍّ؛ لِما فيهِ مِن منافِعَ وبأسٍ شديد، لا لمجرّد استعماله في اللّين والصّنعةِ.

خَلْقُ الحديدِ وإيجادهُ منَّة عامَّة، وإلانَةُ الحَديدِ نعمَةٌ خاصَّة بداودَ عليه السلام

وفي التَّعبير بالإنزال مرادًا به الخلق والإيجاد منَّة على عمومِ العبادِ، بخلاف تليين الحديد فهو مِن خصائصِ داود عليه السلام الذي أُلين له الحديد، فكان في يدِهِ كالشَّمع يعمَلُ منهُ ما يُريد بلا نارٍ ولا مِطْرَقَةٍ[3].

وَجْهُ المُناسبَةِ بينَ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ و﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ و﴿ٱلْحَدِيدَ﴾:

المُناسبَةُ بينَ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ و﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ و﴿ٱلْحَدِيدَ﴾ متعدِّدةٌ، مِنْها أنّ التّكليفَ يدورُ على فِعْلِ ما ينبغي، وترك ما لا ينبغي، فالكتابُ وسيلة للتّمييز بين الحقّ والباطل، فهو متعلِّق بالقوّة النَّظريَّة، والميزانُ وسيلَةٌ لتحقيقِ العدْلِ في المعاملات، وهو متعلّق بالقوّة العمليَّة، أمّا الحديدُ؛ ففيهِ بأسٌ شديد، يُستعمَل للزّجر والدّفع، وهو

ترتيب المصالح الرّوحيّة والجسديّة والزّجريّة في تحقيق العدلِ والحقّ بحسب مقام الإنسان والأمَّةِ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1305.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 537.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 458.

متعلِّق بدفع الفسادِ، فترتيبُ الآية راعى المصالحَ الرّوحيّة أوّلًا، ثمّ الجسديّة، ثمّ الزّجر، كما أنّ المعاملة إمّا مع اللّهِ تَعالى بالكتابِ، أو مع الأحباب بالميزانِ، أو مع الأعداء بالحديدِ، والأقوام إمّا سابقون يتعاملون بالكتابِ، أو مقتصدون بالميزانِ، أو ظالمون لا يَرْدَعُهم إلّا الحديدُ، كما أنَّ الإنسانَ بحسب مقامه؛ فالمطمئن بالكتابِ، واللَّوّام بالميزانِ، والأمّارة بالحديدِ، وكذلك الدّينُ، فَأصوله بالكتابِ، وفروعه بالميزانِ، ومَن أعرض عنهما؛ فلهُ الحديدُ، والكتابُ للأحكام، والميزانُ لتَطْبيقِها، والحديد لحَمْلِ المُتَمَرِّدين عليها، وبهذا تظهر حكمةُ الجَمْعِ[1].

الكتابُ دستورٌ، والميزان معيارٌ، والحديد سلاح يُقيم الحدودَ ويمنع التّظالمَ

وعلاوة على ذلك فإنّ الكتابَ قانونُ الشّريعة، ودستورُ الأحكام الدّينيَّة، الذي يتضمّن جوامع الأحكام والحدودَ، وقد حُظِرَ فيه التّعادي والتّظالم ودفع التّباغي والتّخاصم، وأُمِر بالتّناصف والتّعادل، ولم يكن يتم إلّا بهذه الآية؛ فلذا جُمِعَ بين الكتابِ والميزانِ، وإنّما تحفَظُه العامّة على اتباعها بالسّيف، وجذوة عقابه، وعذب عذابه، وهو الحديدُ الذي وصفه الله تَعالى بالبأس الشّديد، فجمع بالقول الوجيز معاني كثيرة الشّعوب متدانية الجنوب محكمة المطالع مقوّمة[2].

الكتاب هدايَةٌ، والميزان عدالةٌ، والحديد سياج الحمايةِ

وفي الجمع بين الكتابِ والميزانِ والحديدِ أيضًا دلالةٌ على تكامُل وسائِلِ الهداية والتّقويم؛ فالكتابُ يُبيّن، والميزان يُقيم العدْلَ، والحديدُ يُؤمّن الحمايةَ لهما، ويُرهب مَن يَعتدي عليهما، فقوّة الحديدِ تَحْفَظُ الكتابَ والميزانَ، وتَحْمِلُ النّاسَ على الالتزام بهما[3].

وقرن اللّهُ تعالى إنزال الكتابِ بالأمر بالعدل وإنزال الحديدِ؛ إشارةً إلى تكامُل أركان إقامةِ القِسْطِ، فالكتابُ يمثّل القوّة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 470.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 161.
(3) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 250.

التّشريعيّة، والعدلُ القوّةَ القضائيّة، والحديدُ القوّةَ التّنفيذيّة، فالتّشريع الإلهيّ لا يُثمر إلّا بقاضٍ يَحْكُم به، وسلطانٌ ينفّذ حكمَه؛ إذ الحقّ وحده لا يسير إلّا بقوّة تحميهِ، وتردّ العدوان عنه؛ لأنّ النّفوس مجبولةٌ على الظّلم[1].

التّشريع يُثْمِرُ بقاضٍ يَحْكُم به، وسلطان ينفِّذه، ويحميه

دلالة التّعبير بالظّرفيّة ﴿فِيهِ﴾:

جاء التّعبير بالظّرفيّة في قوله: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾؛ للدّلالة على أنّ البأس كامن في جوهرِ الحديدِ ذاتِه، لا مجرّد أثرٍ خارجٍ عنه، وقد ثبت علميًّا أنّ تلاحم ذرّات الحديد داخلَ نواتهِ يفوقُ تلاحم ذرّات المعادن ذاتِ الوزنِ الذّرّيّ الأعلى، كالنّحاس والذّهب، ممّا يجعله أشدّ صلابة وتماسكًا، ويحتاج إلى طاقة هائلة للانصهارِ[2].

الإيماءُ إلى كوامِنِ القوّة في جوهَرِ الحديدِ

دلالةُ التّعبير بالإضمارِ ﴿فِيهِ﴾ دون الإظهار:

الضّميرُ في ﴿فِيهِ﴾ مِنْ قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ راجعٌ إلى أقربِ مذكورٍ، وهو الحديدُ، وقد أُضْمِرَ طلبًا للإيجاز وحسن النّسق، وإظهارُهُ ههنا بعيدٌ عن الفصاحَةِ؛ إذ يكون التّركيبُ: (وأنزلنا الحديد في الحديد بأس شديد)، فالإضمارُ متعيِّنٌ هنا، كما أنّه يعكس وضوح المرجع في الذّهن بما يغني عن الإظهار.

وضوح المرجع الذّهنيّ بما يُغني عن الإظهار

موقِعُ جُمْلَةِ ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ ودلالتُها:

الجملة في قوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ حالٌ مِنَ المفعول ﴿ٱلْحَدِيدَ﴾، وهي حالٌ متضمّنةٌ مَعْنى التّعليل؛ إذ كثيرًا ما تفيد الحالُ سببَ الفعْلِ، فكأنَّ المعنى: أنزلنا الحديد؛ لأنّ فيه بأسًا، ولِيَنْتَفِع النّاسُ بما فيه من قوّة وردع[3]، فالحال هنا تُظْهِر الحكمةَ مِن الإنزالِ.

تضمُّن الحالِ مَعْنى التّعليل

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 623.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 359.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 473.

سِرُّ تقديمِ شبه الجملة ﴿فِيهِ﴾:

التَّنبيه إلى ما فيهِ مِن قوَّةٍ وبأسٍ

﴿فِيهِ﴾ جارّ ومجرور متعلِّقان بمحذوفٍ خبرٌ مقدَّم، و﴿بَأْسٌ﴾ مبتدأٌ مؤخَّر[1]، وسرّ التّقديمِ أنّه لَمّا وقع التّشوّف إلى بيان سبب إنزال الحديد؛ جاء التّقديمُ ليفيدَ الحصر، والتخصيص، والتّنبيه، فكأنّ المعنى: أنزلناه لِما فيه مِن قوّة وشدّة وعذابٍ[2]، فضلًا عمّا في التقديم من رعاية للسَّجْعِ الذي يجعل التّعبير منسجمًا في إيقاعه، متناسقًا في نظمه، كأنّه الدُّرُّ المنظوم[3].

بلاغَةُ التّعبير عَن الضّر بلفظ البأسِ نكرة:

تصويرُ شدّة الضّرّ وقوّة الرّدع بِالسّيوف والرّماح والنّبال المصنوعةِ مِنَ الحَديدِ

التَّعبيرُ بالبأسِ في قوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يحملُ بلاغةً في تصوير الضّرّ؛ إذ البأس يدلُّ على القوّة الشّديدة، ويُراد به السّلاح والكراع، وفيه من رهبة القِتال وخشية القتل والجرح بآلات الحديد، كالسّيوف والرّماح والنّبال ما يُحدِثُ خوفًا شديدًا في النّفوس[4]، وفيه بأس جرأة النّاس على إيصالِ الأذى لغيرِهم باستعمال أدوات الرّدع والدّفاع المصنوعة من الحديدِ[5].

إطلاقُ البأسِ وبيانُ ثباتِ الشّدّة الملازمة للحديدِ في ذاته

جاءَت لفظة البأسِ في قوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ بصيغة التّنكير؛ للتّأكيدِ على إطلاقِ المعنى، وكون القوّة والشّدّة ملازمةً للحديدِ في ذاته، كما أنَّ في التّنكير دلالةً على التّعظيمِ والتّفخيم، وأنَّ البأسَ في الحديدِ عظيمٌ.

دلالة وصفِ البأس بالشّديدِ دون العظيم:

الشِّدَّةُ تصويرٌ للقوّة الحاضرةِ، والعِظَمُ يدلُّ على القَدْرِ دون الأثَرِ

وُصِف البأسُ بالشّديد دون العظيم؛ لأنَّ الشّدّة تُناسب طبيعةَ الحرْبِ وأدواتِها[6]؛ لكونها تُشير إلى الصّلابة والقوّة الفاعلَةِ، وهي

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 532.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 301.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 518.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/ 261.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 417.
(6) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 483، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 301.

الملائِمَةُ للمَضاء والحدّة[1]، فالسّلاح والعدّة تُحدث أثرًا مباشرًا وقويًّا في القتال، والشّدّة توحي بالقوّة الفاعلة، والأثر الحاسم، والبطش الحاضِر، والرهبة العالية، بخلاف العظمة التي قد تدلُّ على القدْرِ دون التّأثير.

دلالَةُ التّنكير في ﴿شَدِيدٌ﴾:

أورد القرآنُ الكريمُ وصفَ الشِّدَّةِ في قوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ بصيغة التّنكير؛ لإفادَةِ التّعظيم والتّفخيم؛ إذ يُشْعِرُ بأنّ بأسَ الحديد عظيمٌ لا يُحدُّ، ولا يُحاط به، ويوحي كذلك بالتّكثير والتّعميم، فكأنّ كلّ ما في الحديد من قوّة وبطشٍ شديدٌ، ولو عُرّف فقيل: (البأس الشّديد)؛ لتوُهِّمَ فيه معنى العَهْدِ، وأنَّ المرادَ به بأسٌ مخصوصٌ أو نوعٌ محدودٌ؛ وهو خلاف المرادِ.

بـأسُ الحديد عظيمٌ لا يُحدُّ، ولا يُقادرُ قدره

سِرُّ عَطْفِ المَنافِع على البأسِ:

﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ معطوفة على ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[2]، وهو من باب عطف أدواتِ القتال على أدوات البناءِ، كالسّيوف والرّماح التي يُقاتل بها، والآلات التي تُحفر بها الأرض والجبال[3]، فكما في الحديدِ بأس يُرْهِب، ويُدافِع، ففيه أيضًا منافِعُ يُنْتَفَعُ بها في السّلم والعمران، فجُمِعَ في الآيةِ بين القوّةِ والرَّحْمَة، والرّدع والعطاءِ، وفي ذلك تحقيق للأمن والاستقرار الذي تُبْنى عليه مصالحُ النّاس.

خـصـائـص الحديد تجمَعُ بـين الـقـوّة والـــرّدعِ، والـعـطـاء والعمرانِ

ويجوز أن يكون هذا العطفُ مِن بابِ عطفِ العامّ على الخاصّ؛ تنبيهًا على شَرَفِ المنافِع وعُموم نَفْعِها[4]، فالمنافِعُ تشمل البأسَ وغيرَه، لكنّها أُخِّرت؛ لتُبْرَزَ أهمّيَّتها، ويُبَيَّن أنّ المقصود من البأس ليس الإيذاءَ، بل ما يُفْضي إليه من مصالحِ للنّاس.

عطف العامِّ على الخاصِّ لتجلية المنافِعِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 301.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 473.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 201.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 472.

بلاغَةُ التعبير بلفظ المنافِع:

في المنافع معنى التّمكين والفتح لا مجـرّد نفع عابر أو فائدة في الطّرح

عُبِّرَ بمفردة المنافِع لدقَّتِها، وشمولها للغلبَةِ بالحديد؛ إذْ يُشير إلى ما يَجْنيهِ الغالبُ مِن غنائمَ وأسْرى وفتحِ بلادٍ[1]، فكلمة (منافع) تجمع بين المعنى الواقعيِّ للتّمكين والسّلطة، وتُضْفي على النّصِّ قوّةً ودلالة تفوق مجرّد المنفعَةِ العاديَّة.

نكتة تنكير (منافِع) وجَمْعه:

منافعُ الحديدِ لا تُحْصى؛ لدُخوله في أغلَبِ أدوات الحياةِ

نُكِّرَ لفظُ (منافع) وجُمِع؛ للدَّلالةِ على الكثرةِ والتّنوع، فلَم تُعرَّف لئلّا توهِمَ العَهْدَ بنوعٍ خاصٍّ مِنْها، بل نُكِّرتْ لتَشْمَل وجوهًا متعدّدة، لا تُحصى، وكذا الجمع يدلُّ على وفْرَتِها وتعدُّدها، فالحديد فيه منافعُ عديدة لا توجد في غيره مِن المعادن، كصناعة أدوات الحمايةِ واللّباس وآلات الزّراعة والبناءِ والتّجارة، حتّى لا يكاد يقومُ أمرٌ مِن أمور المعاشِ إلّا بهِ[2]، ومن هنا صار الحديدُ أساسًا في مصالح النّاس، لا يَسْتَغْنونَ عنهُ في حياتِهم اليوميَّة.

سِرُّ تقديمِ البأس على المنافِع:

مقابَلةُ دعـواتِ الرُّسُلِ بالجحودِ أوجـبَ تقديمَ الزّجرِ

قُدِّمَ قوله: ﴿فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ على ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ دعواتِ الرّسل غالبًا ما تُقابَل بالعناد والجحود، فيكون أوّل ما يَظْهَر منها هو الزّجر والهلاك، لا النّفع والنّجاة، فالهلاكُ يُصيبُ الأكثرين، والنّجاة لا تكون إلّا للقليلِ، كما قال تعالى عن نوحٍ عليه السلام: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود: 40]، وقال مخاطبًا نبيَّه الكريم ﷺ: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103][3]، فجاء ذكرُ البأسِ أوّلًا؛ لأنَّه يُجسّد ما يواجه به الحقُّ عنادَ الباطل، ثمّ ذُكرت المنافع؛ إشارةً إلى ما ينالُهُ المؤمنون من الخيْرِ بعد التّمحيص والابتلاءِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 417.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 536 - 537.
(3) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 789.

دلالَةُ الجمْعِ بين بأس الحديد ومنافعه:

لا يُقام العدْلُ إلّا بقوّةٍ تَحميهِ ومَعاشٍ يُسْنِدُه

في الجمع بين البأس الشَّديد والمنافع دلالةٌ بليغة على أنّ إقامة القسْطِ لا يتحقّق إلّا بتكامل عناصر القوّة والرّحمة؛ فالكتاب يُرْشِد، والميزان يَعْدِل، لكنْ لا يُثْمِران إلّا بوجود مَن يَحْمِل السّيف، فهو يردَعُ الظّالم، ويُقيم الحقّ؛ لأنَّ النّفوس مجبولة على الجَوْر، ومن جهة أخرى فإنَّ الوازِعَ لا يكفي وحده، بل لا بدَّ من وسائلِ التّعايُش[1]؛ إذ ما مِن صنعَةٍ أو مصلحة إلّا والحديدُ داخل فيها آلةً أو أداةً، فكان ذِكْرُ المنافع بعد البأسِ إشارةً إلى أنّ العدل لا يُقام إلّا بقوّة تحميهِ، ومعاشٍ يُسْنِدُه.

سِرُّ الاستغناء عن وصف المنافع:

منافع الحديد كثيرةٌ شاملةٌ بوصفها أساسَ المعايش والمصالح

لم توصَفِ المنافِعُ كما وُصِفَ البأسُ؛ لأنّ المرادَ الإجمالُ؛ للدّلالة على كثرَتِها وتنوّعها دون حَصْرٍ، وهذا الإجمال يُشير إلى أنّ تمشية أمْرِ الكتاب والميزان متوقّفة عليها[2]، فهي أساسُ المعايش والمصالح، أمّا البأس؛ فاحتاج إلى وصفٍ يُبْرِزُ شِدَّتَه؛ لأنّه زاجِرٌ ورادِعٌ، بخلاف المنافع التي تُفهم مِن سياقها.

دلالَةُ اللّامِ في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾:

تَسْخيرُ الحديدِ لنَفْعِ النّاس في مَعايِشِهِم

اللّام في قولهِ تَعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ تُفيد التّخصيصَ، أي: في الحديدِ منافِعَ لأجلهم، فما في الحديد من منافعَ مسخَّرٌ لمصالح النّاسِ ومعايشهم؛ لتَقومَ أحوالُهُم، وتَنْتَظِمَ شُؤونُهُم به[3].

سرُّ التّعبير بالنّاسِ دون الخَلْقِ:

خصوصيَّةُ الحديدِ في خدمة حياة البشَرِ وضرورات عمرانِهِم

التّعبير بالنّاسِ دون الخلْقِ اختيارٌ دقيق بليغ؛ إذ إنَّ الخَلْقَ يشمل جميعَ المخلوقاتِ مِن إنس وجنّ وحيوانٍ وجماد، والحديد بما فيه من بأس حربيّ، ومنافعَ مدنيّة؛ إنّما هو أخصّ بحياة البشر وضروراتِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 188.
(2) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 473.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 301.

عُمْرانِهِم، فاقْتُصِرَ على ذكر النّاسِ؛ ليدلّ على أنّ الانتفاعَ بالحديد من مقوّمات وجودهِم الاجتماعيِّ والحضاريِّ، وللتّنبيه على عمومِ الحاجة إليه في معاشِهِم ومعادهم.

بيانُ متعلّق شبه الجملة في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾:

شبه الجملة في قوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ يتعلَّقُ بكلٍّ من ﴿بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ و(منافع) على طريقة التّنازع؛ تنبيهًا على أنّ الحديد يجمَعُ بين الرّدع والنّفع، فلكلّ وجهٍ من وجْهَيْهِ قومٌ ينتَفِعون به؛ إذ قد يكون بأسُهُ لقومٍ ومنافعه لآخرين، كما أنَّ مصائب قوم عند قوم فوائدُ، والمقصودُ من هذا الجَمْعِ لفْتُ بصائر السّامعين إلى حكمة اللَّه تَعالى في خلق الحديد، وإلهام صنعِه، ليُستعمل بأسُه في مواضع العدل، ونفعُه في مصالح الخلق، فتُجَهَّز الجيوشُ لحماية الأوطان، وصونِ الحرمات، وردِّ العدوان، وحفظ الأموال من الضّاريات والعادياتِ[1].

فوائد الحديد تجمع بين الرَّدْعِ والنَّفْعِ

مَعْنى الواوِ في قولِهِ: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ عطف على قوله: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾، فالمعنى متّصل ومترابط، فيصبح السّياقُ: لقد أرسلنا رسُلَنا، وفَعَلنا كذا وكذا؛ ليَقومَ النّاسُ، وليَعْلَمَ اللّهُ...[2]، فبين الجملتين توسُّطٌ بين الكمالين؛ لاشتراكِهما في الخبريَّةِ، وبينَهما تناسبٌ في اللَّفْظِ؛ إذ الجملتانِ فعليَّتانِ مضارعيَّتانِ، وبينَهُما تناسبٌ في المعنى أيضًا، وهو الجمع بين غرض إقامةِ القِسْطِ والغايةِ الإلهيَّة في معرفةِ مَن ينصُرُ رسلَهُ.

اتّصالُ رسالة الرّسل بتحقيق العدل ومعرفة النّصرة الإلهيّة

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ عطفٌ على مَحْذوفٍ مُقَدَّرٍ يُفْهَمُ مِن السّياق، أي: ليَستَعمِلوا الحديدَ في مواضعِ الجهاد والعدل، وليَظْهَر مَن ينصُرُ اللّه تَعالى ورسلَه بالسّيوف والرّماح وسائر الأسلحة في مجاهدة أعدائهِ[3].

استعمال الحديد في الجهادِ؛ ليَظْهَرَ المُخلِصونَ في نُصْرَةِ الحقِّ بالسُّيوف والعتادِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 417.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 253.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 212.

معنى اللّام في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ تفيد التّعليل، أي: إنَّ إنزال الكتاب والميزان والحديد كان لأجل أن يَظْهَرَ مَن يَنْصُرُ اللّهَ تَعالى ورسله في مواضع الجهاد[1].

بلاغَةُ التّعبير بقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾:

المـرادُ بالعِلْمِ ظُهورُهُ علمه أو هو المعلوم في ذاته

التَّعبير بفِعْلِ العِلْمِ ههنا على ضَرْبَيْنِ، أحدُهما: أنّ المرادَ ليَعْلَمَ اللّهُ تَعالى مَن قد عَلِمَ أنّه ينصرُه عِلْمًا سابقًا، فيُظْهِرُه ناصرًا في الواقع، فيكون العلمُ متعلّقًا بظهور المعلوم لا بتغيُّر العلم ذاته؛ لأنّ علمَ اللّه تَعالى لا يطرأ عليه تجدّدٌ. والآخر: أن يُراد بالعلم المَعْلومُ نفسُه، وهو جائز في اللّغة، كما يقال: الصّلاة أمرُ اللّهِ تَعالى: مأمورُهُ الذي أمرَ به[2].

البَأْسُ للاستعمالِ في الحقِّ لا لقَمْعِ العَدْلِ

وهذا التّعبيرُ فيه سدٌّ للذّريعة؛ وذلك أنّ اللّه تعالى لم يَخْلُقِ الحديدَ وما فيه من بأس شديدٍ؛ ليُستعمَل في قَمْعِ أهل العدل، أو إرغام الآمرين بالمعروفِ على السّكوت، بل ليُستعمل في مواضعِ الحقّ، فصَرْفُ البأس عن مواضِعِه تَحْريفٌ لحِكْمَةِ اللّهِ تَعالى في وضع الأشياء النّافعة، وقَد أومأ إلى هذا المعنى بهذهِ الجُمْلَةِ[3].

دلالة التّعبيرِ بالفعل ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ مُضارِعًا:

الإشارةُ إلى تحقُّقِ المعلومِ في الخارِجِ لا حدوث عِلْمٍ جديدٍ

دلالة التّعبير بالفِعْلِ المضارع ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ في حقّ اللّه تعالى تُفيد أنّ العلمَ متعلّق بظهور المعلومِ في الخارج، لا بتغيُّرٍ في علم اللّه تَعالى؛ لأنّ علمه أزليٌّ لا يطرأ عليه تغييرٌ، فالمقصودُ أنّ الحدَثَ خَرج مِن العدَمِ إلى الوُجود[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 114.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 537.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 418.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 269.

والتّعبيرُ بفِعْلِ العِلْمِ مُضارعًا في حقّ اللّهِ سبحانه يدلّ على العِلْمِ بالواقع والمَشْهَد، وإلّا فإنَّ الله تَعالى يَعْلَمُ الغَيْبَ قبلَ وُقوعِه، لكنْ يُظْهِرُهُ للخَلْقِ؛ ليكونَ حُجّة عليهم، فالمقصودُ أن يُظْهِرَ المعلومَ في الخارج، فيُرى، ويُشْهَد، فلا يستَطيعُ العَبْدُ إنكارَه أو دَفْعَه[1].

بَلاغَةُ المَجاز في قولِهِ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾:

إسنادُ عِلْمِ الأولياءِ إلى اللهِ تَعالى؛ لأنَّه الذي أظْهَرَهُ لَهُم

قولُه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ يجوزُ أن يُفهم على وجهِ المجاز بالحذف، أي: ليعلَمَ أولياءُ اللّهِ تَعالى مَن يَنْصُره[2]، وحمْلُ اللَّفْظِ على ظاهِرِه أوْلى؛ لأنَّ الأمر إذا دارَ بين الحذْفِ وعَدَمِه؛ فعدَمُ الحذْفِ أوْلى، ما دامَ ذلك مُمْكِنًا مِنْ غيرِ أن يترتَّب عليه ما لا ينبغي.

دلالَةُ التّعبيرِ بالاسمِ الأحسَن ﴿ٱللَّهُ﴾:

اسم (الله) جامِعٌ لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ

أُسنِدَ العلم إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ دون غيره من أسمائِهِ الحُسْنى؛ لأنّ هذا الاسمَ هو الجامع لجميع صفات الكمال والجلال، وفيه من العظمةِ ما يَقْتَضي الخضوعَ المُطْلَق[3].

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿مَن﴾ دون (الذي):

الإيماء إلى معنى التَّمييز والاختبارِ

التّعبير بـ ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾ دون (الذي) تَعْبيرٌ دقيقٌ، وذلك أنَّ ﴿مَن﴾ اسمٌ موصولٌ يُستعمَل غالبًا للعاقل، فيوحي بالاختبارِ والتّمييز بين النّاصِر وغيره، بخلاف (الذي) فهو أعمُّ، وليس فيه إشعارٌ بتعلُّق الإرادةِ بالتّمييز أو الامتحانِ، فجاءت ﴿مَن﴾؛ لتدلَّ على أنّ علمَ اللّهِ تَعالى هنا متعلّق بكشْفِ حالِ أفرادٍ مخصوصينَ مِنَ الذين يُبدون النّصرةَ بالفِعْلِ لا بالادّعاءِ.

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 10/ 5795.
(2) النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 309.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 301.

سِرُّ التّعبير بفعل النَّصْرِ مضارعًا:

وجـوبُ بـذْلِ الوُسْعِ في إعلاءِ دينِ اللهِ تَعالى

التّعبير بالنّصر في الجملة وارد على سبيل التّشريف والتّكريم؛ لِما يَحْمِلُهُ لفظُ النَّصْرِ مِنْ معاني الغلبة والقهر بعد المُدافعة، لا مجرّد المعونة، فيكون العبْدُ قد بذلَ غايةَ وُسْعِهِ في إعلاءِ دينِ اللّهِ تَعالى والذَّبِّ عَنْهُ حتّى نصَرَهُ، وصوغه مضارعًا ﴿يَنصُرُهُۥ﴾ يدلُّ على الاستمرار والتّجدُّد، أيْ: إنَّ النّصرة ليست لحظةً عابرَةً، بل هي فعلٌ متواصِلٌ يُقْبِلُ صاحِبُه على نصر دينِ الله تَعالى ورسله بإرادة ثابتَةٍ وعزْمٍ دائم، ففيه إشعارٌ بأنّ النّصرة المطلوبة هي نصرةٌ مستمرَّةٌ، لا موقف مؤقّت[1].

دلالَةُ التَّعْبير بالإضمارِ في الفِعْلِ ﴿يَنصُرُهُۥ﴾:

الإشـارةُ إلى عظمةِ الـذّات العـليَّـة دون وسائِطَ

التّعبير بالإضمار في قوله: ﴿يَنصُرُهُۥ﴾ دون أن يُقال: ينصر دينَه - بالإظهار - فيه تعظيمٌ للّهِ سُبْحانه؛ إذ جُعِلَ الضّميرُ يعودُ إليه مباشرة دون التَّنصيصِ على لفظِ الدّينِ، فجُعِلَ النّصرُ متعلِّقًا بِهِ تعظيمًا لشأنه[2].

دلالَةُ المَجازِ في قوله: ﴿يَنصُرُهُۥ﴾:

نسبـةُ النّصر إلى اللهِ تَعالى تكـريـمٌ للعبد وإعلاءٌ لمقامه في مناصرتِهِ الحقَّ

قول اللّهِ تَعالى: ﴿يَنصُرُهُۥ﴾، أي: ينصُرُ دينَهُ، فإضافة النّصر إلى اللّهِ تَعالى مجازٌ بالحذْفِ؛ لأنّ النّصرة تكون لدينِهِ وشَريعته، لا لذاتِهِ سُبْحانَهُ؛ إذ إنّ الله تعالى غنيّ عن نصرة عباده، لكنّه نسَبَ النّصر إليه؛ لبيان أنّ مَن ينصُرُ دينَهُ ورسولَهُ، فكأنّما نَصَرَ الله تَعالى؛ لأنّ نصرةَ الدّين نصرةٌ لحقّه وأمرِه، وهذا أرفع ما يناله العبد من مقام.

تـعـدُّدُ صـورِ النُّصْرَةِ وتنوُّعُها

ويَحْتَمِلُ أيضًا أنّ المقصودَ نصرُ رسولِهِ محمّد ﷺ، وسائر الرّسل، فالنّصرة تكون بتبليغ ما أُمروا به، ومعاونتهم على أداء

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 301.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 301.

الرّسالة، ونصرُ الدّين يكون بإظهاره في النّاس، والذبّ عن أهله، والمعونة لهم، فكلّ ذلك داخل في معنى النّصرة، وعلى هذا المعنى يُفهَم قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: 7][1].

بلاغَةُ عَطْفِ ﴿وَرُسُلَهُۥ﴾:

بيانُ أنّ النّصرة تشملُ دينَ اللهِ تَعالى ورُسُلَهُ جميعًا

﴿وَرُسُلَهُۥ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ معطوف على الضّمير في ﴿يَنصُرُهُۥ﴾[2]، أي: وينصر رُسُلَه، كما في قوله: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الحشر: 8]، ولا يصحّ أن يكون الرّسل معطوفًا على مفعول ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾، وهو ﴿مَن﴾؛ لأنّ ذلك يؤدّي إلى الفَصْلِ بينَ الموصول وصلته؛ إذ إنّ ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ متعلّق بالفعل ﴿يَنصُرُهُۥ﴾، وهو جُزْءٌ من صِلَةِ ﴿مَن﴾، ولا يجوز العطف على الموصولِ قبلَ تَمام صِلَتِه[3]، والمقصودُ بعطفِ الرّسل في الجملةِ: وينصُرُ رُسُلَه بالذَّبِّ عنهم، والدَّعوةِ إلى ما جاؤوا بهِ[4].

شمولُ النُّصرةِ للرُّسل ومَن تَبِعَهُم في إقامةِ الشَّرْعِ والدّعوة إلى العَدْلِ

وهذا العطفُ يدلُّ على أنَّ النّصرة تشمَلُ القائمين بدين الله تَعالى، ومنهم الرّسلُ ومَن سار على نَهْجِهم، كمَن يُقيم شرائع الإسلام بعدَ النّبي ﷺ، ويذبّ عن الدّين، ويُعْلي كلمتَهُ، ويدخل في ذلك نَصْرُ ولاةِ أمْرِ المسلمين إذا كانوا قائمينَ بالحقّ والعَدْلِ، ومن أبرز مَن نَصَرَ دينَ الله تَعالى بعد وفاة النّبيِّ ﷺ أبو بكرٍ الصّدّيقُ رضي الله عنه[5].

دلالَةُ استِعمالِ لفْظِ الرُّسُلِ مجموعًا:

نصرة الرّسولِ محمّدٍ ﷺ هي نُصْرَةٌ لجميعِ الرُّسُلِ

عُبِّر بلفظِ الرُّسُلِ جمعًا في قوله تعالى: ﴿وَرُسُلَهُۥ﴾؛ تعظيمًا لشأنِ الرّسالات، وتكريمًا لجماعَةِ الأنبياءِ؛ ببيان أنَّ نُصرة النّبيِّ محمّد ﷺ ليست منفصلةً عن نصرة إخوانهِ مِنَ المُرْسَلين، بل هيَ امتِدادٌ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 537.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 244.
(3) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 6/ 107.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 301.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 418.

لسِلْسِلَةِ الدَّعَواتِ الإلهيَّة، وفيه إشعارٌ بأنّ نصرة الرّسولِ ﷺ هي نُصْرَةٌ لجَميع الرّسُلِ؛ لأنَّ دَعْوَتَهُم في أصلِها واحدَةٌ ومَصْدَرَها واحدٌ، فمَن وقَف مع هذا الرّسولِ تأييدًا ونُصرةً؛ فقَد نَصَرَ الحقَّ الذي بعثَ اللّهُ تَعالى بهِ سائِرَ الرّسل، وفي الجَمْعِ أيضًا تعميمٌ للابتلاءِ، حتّى يتبيّنَ صِدْقُ الموقِفِ مِنَ الرّسالة في ذاتها، لا مِن شخصٍ بعَينِه، فيتحَقَّق الامتحانُ في نُصْرَةِ المَبْدَأِ الإلهيِّ الجامع، لا في موالاةِ فَرْدٍ مخصوصٍ.

سِرُّ عدَمِ ذِكْرِ فِعْلِ النُّصْرَةِ معَ الرُّسُل:

ترك الذِّكْرِ ههنا أبلغُ من الذِّكْرِ

لم يُكرَّر فعل النَّصْرِ (يَنصُرُ) مع الرُّسُلِ، فلم يَرِدِ النَّظم القرآنيُّ: (وينصُرُ رسُلَهُ)؛ اكتفاءً بالفعْلِ الأوّل؛ لدلالةِ السّياق عليه، وتركُ الذِّكْرِ هنا أبلَغُ مِن الذِّكْرِ؛ لأنّ العطف هنا يَقْتَضي اشتراكَهما في الفعلِ الواحِدِ، وأيضًا فإنّ تقديمَ النّصْرِ للّهِ تَعالى، ثُمّ عطْفَ الرُّسُلِ عليه يَشي بأنّ نُصرة الرّسل فرعٌ عَن نصرة الله تَعالى، فهي في حقيقتها وجهٌ مِن وجوهِ نصرة الحقّ الإلهيّ، فكان حذفُ الفعل مع المعطوف أدلَّ على شدّة الارتباط بين الجِهَتَيْن، وإبراز أنّ نصرة الرّسُلِ لا تُتصوَّر إلّا ضِمْنَ نُصْرَةِ اللّهِ تَعالى ودينِه، فكأنّهما شيءٌ واحد لا يَنْفَكُّ أحدُهما عن الآخَرِ.

مَعْنى الباءِ في قوله: ﴿بِٱلْغَيْبِۚ﴾:

إشعارٌ بحال النّصر مقترنًا باليقين بالغيبِ دون معاينَةٍ حسّيَّةٍ

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِۚ﴾ تفيد السّببيّة، أي: إنَّ النّصرةَ وقَعَت بسبَبِ إيمانِ النّاصر وتصديقه بما غاب عنهُ مِن وعدِ اللّهِ تَعالى ووعيده، فهو يَنْصُرُ اللّهَ تَعالى ورسلَهُ ﷺ اعتمادًا على ما لَم يَشْهَدْهُ بعَيْنِه، بل بما كان غائبًا عن مظاهِرِ القوّة، مستندًا إلى يقينٍ قلبيٍّ، أو بما كان غائبًا عن كلّ ما يوجب له النّصرةَ مِن دَعْمٍ أو تأييد[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 301 - 302.

ويجوزُ أن تكونَ الباءُ دالَّةً عَلى الملابَسَةِ، أي: مُتَلبّسين بالغيب حالَ نُصْرَتِه ورُسُلِه، فيُفْصِح التّعبير عن مقام الإيمان الصّادق الذي يَثْبُتُ فيه المؤمن على نَصْرِ الحقّ دونَ معاينَةٍ حسّيَّةٍ أو بُرْهان مُشاهَدٍ، بَل اعتمادًا على يقين الغيبِ وإخلاصِ السّريرةِ.

النُّصْرَةُ الحقَّةُ هي التي تقعُ حال الإيمانِ بالغَيْبِ

دلالَةُ تعلُّقِ (الغَيبِ) بفعلِ النَّصْرِ:

تعلُّقُ (الغيبِ) في قول الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ بفعْلِ النَّصْرِ يدلُّ على أنّ النّصرة المطلوبةَ ليست مجرّد فعلٍ ظاهرٍ، فقَد يُظْهِرُها منافِقٌ أو طالِبُ دنيا، بل المرادُ نُصْرَةٌ نابعة من إخلاص القلب، تصديقًا بوعد الله تَعالى ووعيده، دون رؤية أو منفعة عاجلة، فهي نصرة غيبيَّة، أي: بإيمان خالصٍ لا رياءَ فيه، يَظْهَرُ صِدْقُ النّاصِرِ في نُصْرَتِهِ للّه تَعالى ورسلِه ﷺ[1].

النّصرة المطلوبةُ ما كانت نابعةً من إخلاصِ القَلْبِ

وخَصّ الله سبحانه النّصر لَهُ ولرُسُلِه بحال الغيْبِ؛ لأنّه نَصْرٌ نابعٌ مِن صدق الإيمان ويقينِ القلب، لا من رياء أو مجاملَةٍ، فهو نَصْرٌ لا يَنْقَطِع، يَظْهَر في السّر والجهر، وفي القول والعمل، بخلافِ النّصر الظّاهرِ الذي قد يَصْدُرُ عَن نفاقٍ أو مصالحَ دنيويَّة، ولذلك كان المعوّلُ عليهِ ما في القلوبِ مِن إخلاص، فإذا صَدَقَتِ النّيّاتُ؛ صحّت الأعمالُ، ونالت القبولَ عندَ الله تَعالى[2].

النّصرة حالَ الغَيْبِ علامَةٌ على الإيمانِ الصّادِقِ

وقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ يتعلّق بالفِعْلِ ﴿يَنصُرُهُۥ﴾، أي: ينصرُه نصرًا نابعًا من داعي النّفس وإيمان القلب، لا مِن خوفِ رقيبٍ أو طلَبِ مَدْحٍ، فالمعنى: أنّه يُجاهِد في سبيل الله تَعالى، ويدافع عن الدّينِ بإخلاصٍ خالِصٍ[3]، دون أن ينتظِرَ رؤيَةَ أحَدٍ أو مراقبَتَهُ، فيكون عملهُ للّهِ تَعالى وحدَهُ.

العملُ للهِ تَعالى وحده في السّرِّ والعلنِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 472.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 790 - 791.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 418.

بلاغة التّعبير ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾:

في التَّعبير بالغيبِ في قول الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ إشارةٌ إلى أنّ الإيمان الحقيقيّ هو ما كان في الدّنيا قبل يومِ القيامَةِ، فإيمانُ العبادِ قبلَ القيامة غيبٌ بالنّسبة إليهم[1] حين تكون الغيبيّات محلَّ ابتلاء واختبارٍ، فالنّصرة بالغيبِ تدلّ على صدق الإيمانِ؛ إذْ يَنْصُرُ المؤمنُ دينَ اللّهِ تَعالى ورسلَهُ قبل أن يَرى الجزاءَ أو النّصرَ بعينِه، فهو يُحْمَد، ويُثاب على طاعته[2]؛ لأنّ طاعتَهُ وقعَت عن يقين قلبيٍّ.

الإيمان الحقُّ يثبُت قبل رؤيةِ الحقائقِ في الآخرةِ

وفي هذا التّعبيرِ إشارةٌ إلى أنَّ النّاصر يفعَل ذلك عن إخلاصٍ، لا رياءً ولا طلبًا للثّناء، فهو بخلاف المنافق الذي يُظْهِر النّصرة إذا رآهُ النّاس، ويتركها، إذا غابَ عَن أعيُنِهم[3].

إبراز الفرق بين المؤمن الصّادقِ والمنافِق الكاذِبِ

سِرُّ فصلِ جُمْلَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ عمّا قبلَها:

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونه تعليلًا بديعًا لجملةِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ إذ إنّ قوّةَ اللّهِ تَعالى وعزّتَه في شُؤونه القدسيّةِ تَقْتضي أن يكون رسلُه على سَمْتِ القوّة والعزّة، وأن تُعظَّم كتبُه، وتوقَّر شرائعُه، وهذا لا يتحقَّق في عالم الأسباب إلّا بأن ينهَضَ لنُصْرَتِه رجال مخلصون، يعينون على نشر دينه، ويقيمون دعائمَه[4].

تعليلُ إرسالِ الرُّسُلِ بإظهارِ قوَّةِ اللهِ تَعالى وعزَّتِهِ

ويجوزُ أن يكون الفصلُ هنا واردًا؛ لكون الجملةِ جملةً استئنافيَّةً لا محلّ لها من الإعراب[5]، جاءت لترسّخ في القلوب أنّ اللّه تَعالى هو القوي الذي لا يُغلَب، العزيز الذي لا يُقهر، فلا يَظُنُّ ظانٌّ أنّ نَصْرَهُ متوقّف على عبادِهِ.

تعزيزُ إدراكِ المؤمنين أنّ كمالَ القوّةِ والعزّةِ للهِ تَعالى وحدَهُ

(1) الواحدي، الوجيز في تفسير القرآن العزيز، ص: 1071.
(2) الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 4/ 254.
(3) النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 309.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 418.
(5) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 314.

بلاغةُ التّذييل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾:

تقريرُ غِنَى اللهِ تعالى عن نُصرةِ عبادِهِ لَهُ

قول اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ اعتراض تذييليٌّ يحملُ بلاغةَ التّقرير والتّأكيد، وهوَ يُبيّن أنّ أمْرَ اللّهِ تَعالى عبادَهُ بالجهاد، وتعريضَهُم للقتال، ليس لحاجتهِ إلى نُصْرَتِهم في إعلاءِ كلمَتِه، فهو غنيٌّ عنهم، قويٌّ بذاته، عزيزٌ في سُلْطانه، لا يفتقر إلى أحدٍ في تنفيذ مشيئتهِ، وإنّما شرَعَ الجهاد لينتفع به المؤمنون، فيرتقوا بطاعتهِ، وينالوا الثّواب، ويُظهروا صدقَ الإيمان، فالله سُبحانَهُ يُريد لهم الخير، لا لنفسه النّفعَ؛ إذْ هو القويُّ العزيز في كلّ ما يُريد[1]، لا يُعجزه شيء، ولا يحتاج إلى مُعين.

دلالَةُ التّأكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

دفعُ مظنّةِ الضّعفِ؛ بإثباتِ أنّ القوّةَ والعزّةَ لَهُ وحدَهُ

جاءت ﴿إِنَّ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ للتّوكيد[2]؛ إذ قد يُتوهَّم في طلب النّصر مظهرُ ضَعْفٍ، فنَفى سبحانهُ ذلكَ مؤكِّدًا؛ ليَقْطَعَ الطّريق على المُتَعَنِّتين، مبيّنًا أنَّ القوّة والعزّة لَهُ وحده[3].

دلالَةُ التّعبيرِ بالاسْمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ مُظْهَرًا:

بيانُ أنّ القويَّ العزيزَ هو اللهُ تَعالى بجلالهِ المُطْلَقِ

في التّعبير بالاسْم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ مُظهرًا، مع أنَّ الظّاهر يقتضي إضمارَهُ؛ لتقدُّم ذِكْرِهِ في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، وذلك قطعًا لأيِّ احتمالٍ في دفع الوَهْم النّاشئِ عن الجملةِ قبلَهُ؛ فإنَّهُ لَمّا كان طالبُ النُّصرة مظنّةَ توهُّم الضَّعف؛ نفى سبحانه ذلك، وأظهر الاسمَ الأعظمَ؛ إشارةً إلى أنّ من له جميع صفات الكمال لا يمكن أن يلحقَهُ ضعفٌ بأيِّ وجهٍ مِنَ الوجوهِ، فاللّهُ تَعالى له العَظَمَةُ كُلُّها[4]، كما أنَّ إظهارَ الاسمِ الأحسَن ﴿ٱللَّهَ﴾ يجعل جملةَ التَّذييل جاريةً مَجْرى المثَلِ؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 212.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 359.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 302.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 302.

لاستقلالِها بالإفادَةِ وعدَمِ افتقارِها إلى ما قبلَها في الكشْفِ عن تمامِ مرادِها، بخلاف ما لو أُضْمِرَ؛ فإنَّ جملةَ التَّذييلِ تحتاجُ إلى ما قبلها في بيانِ كمالِ المرادِ مِنْها.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿قَوِيٌّ﴾:

بيانُ وفرةِ القُدرةِ وكمالِها

استُعْمِل وصف ﴿قَوِيٌّ﴾؛ لأنّه أدلُّ على شدَّة البَطْشِ واستحكامِ القُدرة من وصف (القادر)؛ لأنَّ (القادِرَ) يصدقُ على مَن يملك أصلَ الاستطاعة، ولَو في أدنى مراتبِها، أمّا القويُّ؛ فإنَّه يُفيد وفرةَ القدرة وتمامَها، فلا يلابِسُها عجزٌ ولا قصور، فجيءَ بوَصْفِ القوّة هنا مبالغةً في تهديدِ المُشْرِكين؛ إذِ القوَّةُ التّامّة التي لا يعارضها شيء أوقَعُ في نُفوسِهم، وأقطَعُ لشُبْهَةِ المُتَعَنِّتين[1].

سِرُّ وصف القويِّ بالعزَّة:

القـوّةُ أسـاسُ العزّةِ ومبدَؤُها

وُصِفَ القويُّ بالعزَّة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾؛ لِما فيه مِنَ الجَمْعِ بينَ أصلِ القُدْرَةِ وكمالِ السُّلْطانِ، فاللهُ قويٌّ في أمرِه لا يُعْجِزُه شيء، وعزيزٌ في مُلْكِه لا يُغالَب ولا يُقهَر[2]؛ فجاء التَّرتيب منسجمًا مع مقتضى الفِطرة؛ إذ لا تُتَصوَّر عزّةٌ بغيرِ قوَّةٍ تمهّد لها.

سرُّ الجَمْعِ بين الوصفَيْنِ مِن غيرِ حرفِ عَطْفٍ:

تكامُلُ الأوصافِ الإلهيَّةِ

جُمِعَ بين الوَصْفَيْنِ ﴿قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ من غير حرفِ عَطْفٍ؛ لإفادةِ قوَّة المعنى وترابطِه من غير تباعُدٍ يوهِمُ التّغايُر، فالقويُّ يدلُّ على كمال القدرة التي لا يُعجزها شيء، والعزيز يدلّ على الامتناع والغلبة التي لا تُقهر، واجتماعهُما من غير وساطَةِ حرفِ عطفٍ يوحي بأنّ القوّة والعزّة في ذات اللهِ تَعالى مُتلازِمَتان، لا تنفَصِلُ إحداهُما عن الأخرى، فهو قويٌّ في عزّته، عزيز في قوّته.

كما أنّ حذْفَ العاطفِ يُفيد التّأسيسَ، أي: إنَّ كلَّ وصفٍ يُضيف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 44.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 33.

معنًى مستقلًّا، ويُضْفي على السّياق إيقاعًا قويًا يناسب مقام التّهديد، ومقامَ التّذكيرِ بعظمَةِ الحقِّ سُبْحانَه.

دلالَةُ تنكيرِ الاسمَيْنِ الكريمَيْنِ:

إطلاقُ القوّةِ والعزّةِ وتعظيمُهُما

نُكِّرَ الاسمانِ الكريمانِ في قول اللّهِ تعالى: ﴿قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ دون التَّعريف (القَويُّ العَزيزُ)؛ لإظهار الوصفَيْنِ على جهة الإطلاقِ مِن غير تخصيص ولا حصْرٍ؛ ليدلَّ على عظمةٍ مطلقة لا تُقيَّد بموطنٍ دونَ آخر، فجاء التّنكيرُ هنا تأكيدًا على المَعْنى المقصودِ في مقام التّهديد والإنذار، بخلاف مواردَ أخرى اقتضَت التّعريفَ لمقام أعظمَ، بإنجاءِ أهل الإيمان ونحوِه، كما في قول اللّه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود: 66]، فهو سبحانه قويّ في ذاته، عزيز لا يُغلب، غنيّ عن كلّ شيء، فنُكِّر الخبر ﴿قَوِيٌّ﴾ في آية الحديد؛ لإفادةِ ما تضمّنه التّنكيرُ مِن تعظيمٍ وتهويلٍ[1].

بيان المتشابه اللفظي في الفاصلة:

زيادة التّوكيد باللّام في سورة الحجّ لمقام أشدّ ابتلاء

اختلفَت جملةُ الفاصلةِ في هذه الآيةِ عَن موضعِ سورة الحجِّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: 40]؛ لأنّ المقام في سورةِ الحجّ أُشير فيه إلى مظلوميّةِ الإخراجِ مِن الدّيارِ وما يَقْتَضيهِ مِن عِظَمِ البلاء، فناسبَه مزيد توكيد باللّام دفعًا لكلّ شبهة، وتثبيتًا للقلوب في موطن عظيم يحتاجُ إلى أقوى أسبابِ التّعزية والطّمأنينة، أمّا هنا؛ فلَم يَكُن السّياقُ داعيًا إلى هذا القَدْرِ مِنَ التّوكيد، فاكْتُفي بالتّصريح بالخبر مُجرّدًا مِن اللّام؛ تنبيهًا على أنّه غنيّ عن كلّ شيءٍ[2].

بلاغَةُ الإيجاز في الآية الكريمَةِ:

هذه الآيةُ الكريمةُ آيةٌ في الإيجاز، بحَشْدِ معانٍ جمَّة في ألفاظٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 302.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 302.

كلماتٌ موجزةٌ تحمِلُ معانيَ كُلّيَّةً جامعَةً

قليلة موجزةٍ، فـ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هُنا ليس محضَ نصٍّ، بل هو قانونُ الشّريعة، ودستورُ الأحكام، يتضمَّن الحدود والنّواهيَ، ويُحرِّم البغيَ والتّظالم، ويَقْضي على التّعادي والتّخاصم، وقد وضع سبحانه آلة العدْلِ؛ لتنبيهِ النّاس إلى موقِع فائدةِ العدل، ويُراد بالكتاب الجامعِ حِفْظُ النّاس على اتِّباع الأوامر الإلهيَّة، وإلزام العالَم بأحكامِها، وأمّا الحديدُ؛ فهو رمز القوّة والصّلابة، وسيفُ اللّهِ تَعالى الذي يحقِّق الحجَّةَ على مَن جحَدَ الحقَّ، وعانَدَهُ، فجاء ذِكْرُهُ موجزًا جامعًا لمعانٍ كثيرة هي القوّة والعدل والرّشد والعقوبة في جمع بليغ بين المفهوم والمعنى والرّمز، وفي قول وجيز مُحْكَم يفيض بالمعاني دونَ إفراطٍ أو إسهابٍ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسالُ والبَعْثُ:

إرسـال الرسل مقرون بالآيات والبينات

يرى بعضُ أهلِ العلم أنَّ الإرْسالَ أخَصُّ مِنَ البَعْثِ، مِنْ جِهَةِ أنَّ "الإرْسالَ يُفيدُ مَعْنى البَعْثِ مَعَ العُلوِّ"[2]، ويرى آخرون، مِنهمُ العسكري أنَّ "الإرْسالَ لا يَكونُ إلّا بِرِسالَةٍ وما يَجْري مَجْراها"[3]، وهَذا الفَرْقُ قَد تُشْكِلُ عليه آياتُ إرْسالِ الرّياحِ، كَما هوَ ظاهِرٌ، إلّا إنْ قيلَ: إنَّ إرْسالَ الرّياحِ يَكونُ بِرِسالَةٍ يُفْهِمُها اللّه تعالى إيّاها، ويُفْهِمُها الأرْضَ المَيِّتَةَ، ولكِنَّ هذا مِنَ الغَيْبِ الذي لا يُمْكِنُ الجَراءَةُ عليه إلّا بِدَليلٍ مِنَ الشَّرْعِ.

وفي تَفْسيرِ المَنارِ أنَّ البَعْثَ أبْلَغُ مِنَ الإرْسالِ؛ "لأنَّهُ يُفيدُ مَعْنى الإثارَةِ والإزْعاجِ إلى الشَّيْءِ المُهِمِّ، ولَمْ يُذْكَرْ في القُرْآنِ إلّا في بَعْثِ المَوْتى، وفي الرِّسالَةِ العامَّةِ، أيْ: بَعْثُ عِدَّةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وفي بَعْثَةِ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 255.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 3/ 302.
(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 289، وابن عادل، اللباب: 9/ 176.

نَبيِّنا وموسى خاصَّةً، وكَذا في بَعْثِ نُقَباءِ بَني إسرائيلَ، وبَعْثِ مَن انْتَقَمَ مِنْهُمْ، وعَذَّبَهُمْ، وسَباهُمْ حينَ أفْسَدوا في الأرْضِ"[1]، ويُشْكِلُ عليه ذِكْرُ إرْسالِ الرّيحِ لِلعَذابِ في مَواضِعَ مِنَ القُرْآنِ الكَريمِ، كَقولِه تَعالى: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء: 69]، وقوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ [الذّاريات: 41]، ولَم يُستَعمَل مَعَهُ البَعْثُ.

وأظْهَرُ مِنْ هَذا كُلِّهِ ما ذَكَرَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ الغَرْناطيُّ مِنْ أنَّ الفِعْلَ (أرْسَلَ) أخَصُّ في بابِ الإرْسالِ مِنَ البَعْثِ؛ "إذْ لا يُقالُ: أرْسَلَ، إلّا فيما كانَ تَوْجيهًا، فيهِ مَعْنى الانْتِقالِ حَقيقَةً أوْ مَجازًا، أمّا (بَعَثَ)؛ فَأوْسَعُ؛ فَإنَّهُ يَقَعُ بِمَعْنى الإرْسالِ، وبِمَعْنى الإحْياءِ، ومِنْهُ: البَعْثُ الأُخْراويُّ"[2]، وممّا تقدّم يظهر أن لفظ إرسال الرّسل في الآية أنسب من لفظ بعثهم؛ لأنَّ التعبير بهم في الآية مقرون بالرسالة التي بُعِثوا بها، والآيات والبيّنات التي صاحبت إرسالهم من كتاب، وميزان، وغيرهما.

القِسْطُ والعَدْل:

القسط: هو العدلُ الظّاهِرُ البيِّنُ

(القسط): هو العدْلُ الظّاهر البيِّن الذي يمكِنُ إدراكُهُ بالحِسِّ والمشاهدَةِ، لا مجرّد العدْلِ الباطنيّ أو النّظريّ، ومنه سُمّي المكيالُ قسطًا والميزان قسطاسًا؛ لأنّه يصوّر لك العدلَ في الوزنِ حتّى تراه ظاهرًا، وقد يأتي مِنَ العَدْلِ ما كان خافيًا[3].

واستُعملت مفردة (القسط) في قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ لأنّ الآية تُشير إلى أنّ اللّه تعالى أرسَلَ رُسُلَهُ بالبيّنات، وأنزل معهم الكتاب والميزان، وهي أدوات توصل إلى إقامة عدلٍ حقيقيّ في حياة النّاسِ، يُرى في المعاملات والأحكام والموازينِ

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 9/ 34.
(2) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 216.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 428.

والحقوق، فالمطلوب مِن النّاس ليس معرفةَ العَدْلِ أو الإيمان به حسبُ، بل تحقيقُه واقعًا ظاهرًا، وهذا ما يُعبَّر عنه بالقِسْطِ، فاختيار هذا اللّفظ يؤكّد أنّ الغايةَ مِنَ الرّسالات الإلهيَّة أن يُقام العَدْلُ الذي تتحقق به مصالح النّاس في حياتِهم، وتُصان به حُقوقُهُم، لا أن يَبْقى العدل أمرًا نظريًّا.

القويّ والقادِر:

(القويُّ): هو مَن يَقْدِرُ على الشّيء، وعلى ما هو أكثرُ منهُ، ويملِكُ فَضْلَ قُدْرَةٍ يتجاوزُ الفعل ذاته، بخلاف (القادِر) الذي قد يَقْدِرُ على الشّيء بحدِّ طاقته دون زيادة[1]، ومن هنا يُعْلَمُ سببُ اختيارِ النَّظم القرآنيِّ لِلَفْظِ ﴿قَوِيٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾؛ إذِ المقصود بيانُ أنّ قدرة اللّهِ تعالى لا تحدّها حدود، وأنّه يفعَلُ، ولا يَنْفَدُ مِن قوّتِهِ شيءٌ، بل تبقى قدرتهُ كاملةً مُطْلَقَةً، وهذا يتناسب مع سياقِ صفاتِه العُليا، فجاء التّعبير بـ ﴿قَوِيٌّ﴾؛ للدّلالة على عظمة الشّأن، وكمال القدرة، واستمرارِها بلا نقص، ثُمّ قُرِنتْ بـ ﴿عَزِيزٌ﴾؛ تأكيدًا لهيبتِهِ وغلبَتِهِ التي لا تُقهَر.

القـويُّ مَـن لا تنفَدُ قُـدْرَتُـه، فهو أبلـغُ مِنَ القادِرِ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 438.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الستون،
سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 60 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-66-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 60 : المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-66-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5294607 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"